



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY

نَيْبُ الْاِفْتِيَار

780.902

I26mA

C1

معالم الموسيقى العربية

الناشر: المكتبة القصرية - صيدا وببيروت

المطبعة القصرية
للطباعة والنشر

١٩٥٣



تطل الموسيقى على الإنسانية من اعماق اغوار التاريخ ، وهي مجهولة الاصل ، فقد قيل ان الانسان غني قبل أن يتكلم ، بحيث عبر عن مشاعره بالانغام قبل أن يعبر عنها بالكلام ، ومهما كان شأن تاريخ هذا الفن الجليل ، فالامر الجدير بالملاحظة ، أن الموسيقى تتصل بنشاط الانسان الاول ، انتقلت من شعب إلى شعب ومن قطر إلى قطر ، وهي تسير من حسن إلى أحسن ومن سام إلى اسمى ، انتقلت من العبرانيين إلى المصريين ، ومن المصريين إلى اليونان ، ومن اليونان إلى الرومان ، وقبل هذا التاريخ ، سارت الموسيقى في موكب الكلدانيين والاشوريين والفينيقيين ، وغيرهم من شعوب العصور الغابرة ، وهكذا نلاحظ أن الموسيقى قديمة قدم الانسان نفسه ، شأنها في ذلك شأن كل شيء يرسد إلى أصل عميق الجذور في تاريخ الحياة الإنسانية ، ونحن كلما عدنا بانفسنا إلى أقصى آماد عالم الموسيقى ، نلاحظ أن الموسيقى لدى الشعوب القديمة ، صفات غريزية مشتركة ، صفات تتجلى لنا في البساطة والابتناع العنيف والطابع الديني ، وبالرغم من هذه الصفات ذات السمة المشتركة ، فقد كانت الموسيقى تأخذ لنفسها في انطلاقها المتلاحق المستمر ، الصفات العقلية والنفسية لكل شعب ، تأخذ لنفسها هذه الصفات ، لتلتقي في الغاية القصوى ، غاية التعبير عن الاحساس في الحان .

غير أن الموسيقى حينما اطلت على الحياة الدنيا ، لم تطل عليها وهي فائقة بذاتها مستقلة بنفسها ، اطلت وهي مزيج مركب ، من غناء ورقص وشعر ، وكانت هذه الفنون الجلمية الثلاثة ، تؤلف كلا موحداً ، بحيث كان من الصعب العسير معرفة ما إذا كانت الموسيقى او الرقص او الشعر هو أصل سائر الفنون الجلمية ، أو انها تفرعت معها في مهد واحد ودرجت وابتاعا فوق صعيد واحد ، ومهما يكن الامر فقد كانت الطبيعة معلم الانسان الاول ، فقد الانسان العاصفة في صخبه وثورته ، والجدول الرقراق في سكونه وهدأته ، كانت الموسيقى بالنسبة له الاداة التي يعبر بها عن مشاعره المختلفة وحالات وجدانه المتباينة ، عبر عن عواطف القلب - بالالحان الغزلية ، وعن وده وعبادته بالترانيل الدينية ، وعن احزانه ومأسيه بالانغام المأثمة ، وعن زهوة حماسه الوطنية بالاناشيد

القومية . ولم تكن الفنون الجميلة في كلها الموحد ، فنل الفن الراقي العظيم ، الفن المبدع الملهم في الشكل والمعنوي ، وإنما كانت بدائية بسيطة ، تتجاوب مع طبيعة الرقي العقلي والروحي للعصر الذي ظهرت فيه ، فالإنسان القديم ، هذا الإنسان الذي كان وما زال ، يمور صدره بقيض نشاط حيوي ، كان بحاجة قصوى لانفاق هذا النشاط ، كان يلهو وكان يعبت ، ومن هذا العبت وذلك اللاهو ، ولد الفن ، كان هذا اللعب لعباً مشمراً نافعا ، كان هذا اللعب (حراً يقوم به الخيال والعقل معاً) كما يقول « كانت » ، وكان هذا اللعب (لعباً سامياً يعزينا عن احزان الحياة) كما يذهب إلى ذلك - « شوبنور » ، وكان هذا اللعب (قيض عواطف مضطربة) كما يرى « كيو » ، ومع هذا فقد استطاع الإنسان بفضل هذا اللعب ، أن ينجح الحياة اسمى قوة ابداعية .

كان الإنسان القديم يغني ويرقص وينظم في وقت واحد ، فقد كانت الموسيقى في الزمن الماضي ، مثل الرقص ، حركة لا أقل ولا أكثر ، ومن هنا عرف الاقدمون الموسيقى بقولهم « فن الحركات المتجمعة » وقالوا « الغناء والرقص توأمان » وما يقال عن الموسيقى والرقص ، يقال أيضا عن الموسيقى والشعر ، فقد كان الاقدمون يربطون القصائد في مختلف المواسم والاعباد ، وكانت قصائد « هومر » تعزف على المزهر ، وتجلت الوحدة العميقة القائمة بين الموسيقى والغناء في الفنون الاغريقية ، إذ كانت الموسيقى والغناء اليونانية مسيرة باحكام الوزن الشعري ، كما كانت قوية الصلة بتقاطيع البيت الشعري ، ولم تفصل هذه الفنون الجميلة الثلاثة عن بعضها بعضا الا بعد أن مرت في مراحل تاريخية معينة ، استدعاهانطور الإنسان اللامتناهي .

إلى جانب هذه الصلة العريقة القائمة بين الموسيقى والرقص والشعر ، كانت هنالك صلة وثيقة بين الموسيقى والدين ، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول : ان الدين هو أصل الموسيقى فقالوا (ان الانبياء والرسل والقديسين كانوا يتلقون الوحي على الايقاع الموسيقي) بحيث كانت الانغام تنساب مع غوجات الالهام ، واحتشدوا على ذلك بلوحة فنية من لوحات القرن التاسع ، تمثل صورة الروح القدس على شكل طائر جميل يردد أغنية سحرية في أذن البابا ، وذهب « بول ماسون اورسيل » إلى القول (ان الانشيد التي كانت تمجد آلهة كل شعب ، كانت جزءاً

لا يتجزأ من الآداب الدينية) ، وكان القدماء حينما يصورون الآلهة يصورونها وهي محاطة بفرقة موسيقية .

ولعل أظهر ناحية من نواحي الصلة الوثيقة القائمة بين الموسيقى والدين ، هي تلك الصفة الشعرية التي تحمل بها الكتب الدينية ، بحيث أن أسلوبها كان موقعا ايقاعا غنائيا فيه جرس وفيه تناغم .

ولكن الإنسان ، هذا المخلوق الذي قضت عليه سنة الحياة ، بأن يكافح ويجهاد كان لا يقضي معظم أوقاته في سدرة أحلام انتهى ، كان عليه أن يعمل ليعيش ، وأن يستخدم الفكر لمعاشه ، وفي غمرة العمل الشاق المرهق ، في لفحة الهجير والسعة البرد القارس المرير ، كان يمضي وهو يحرق ورائه الحياة ، يحرق الأيام والليالي ، مشقة بهم رازحة بالغم ، يمضي وهو ينطلق دائما وأبداً ، إلى فيجر الخلاص ، وعلى قمع سوط القدر ، كان يردد الانغام ، لا لينغم بالشو ، بل ليعطوي الحياة في أفصر وقت مستطاع ، كان أولئك الذين يمارسون المهن اليدوية الفردية ، في الزمن القديم ، ينشدون وهم يعملون ، يرتلون وهم يكدهون ، كانوا يفعلون ذلك لينسوا وجودهم في دنيا تأخذ أكثر مما تعطي ، وتسلب أكثر مما تمنح ، كانت انغماسهم بحركة ، حركة تتجارب مع طبيعة حركة المهنة ، شأن البعارة والتجار والحصاد والحصاد وغيرهم من مادة المجتمع الأولى .

وهكذا رافقت الموسيقى حياة الإنسان في مختلف الأدوار ومتباين المراحل ، سواء أكان ذلك في تصوراته العقلية أم في حياته اليومية أم في أحلامه الغيبية .

* * *

خلدت معظم الشعوب القديمة حياتها الفنية فيما خلفت من آثار ، فعبرت هذه هذه الآثار بصورة صادقة واضحة عن تصورات هذه الشعوب وهواجس أحلامها ونزوات أوهامها ، فنحن بفضل الآثار المصرية نمسكنا من معرفة دنيا موسيقى الشعب المصري ؛ إذ كانت هذه الدنيا مقدسة ولها حرماتها ولها مكانتها ، كانت جزءاً من الآداب الدينية ، فقد كان المصريون القدماء يعتقدون بأن الميت يبعث في قبره ، وأنه يقضي حياة تحت الأرض نظير الحياة التي عاشها فوق الأرض ، فوضعوا إلى

بجانب الميت القوت الضروري له ، مع آلة موسيقية ، فيما اذا كان يعزف على آلة
 موسيقية ، وفي الهياكل والمعابد قامت لوحات فنية ، لوحات تصور طائفة من
 العازفين والعازفات ، هذا يضرب على (هارب) وآخر على (كينار) وثالثة على
 (لوت) ، وبفضل هذه اللوحات ، عرفنا الآلات الموسيقية التي كان يستعملها
 الشعب المصري ، كما عرفنا مدى تطوره الفني ، وما يقال عن الشعب المصري ،
 يقال ايضا عن الشعب الاغريقي والروماني ، اما الشعب العربي ، فلم يترك لنا شيئاً
 من هذا القبيل ، لم يخلف اثرأ ينطق بما كان له من آلة موسيقية وما كان له من فن ،
 كان هذا الشعب بدوياً رحالة جواب آفاق ، لا يقتني الاشياء التي تربطه بالارض
 ولا يبتكر الاشياء التي تؤلفه بالارض ، فلم يترك خلقه ، ما يشير الى ما كان عليه
 من مدنية وحضارة ، كانت الذاكرة كل شيء ، عنده ، يتوارث بالسماع فنونه وآدابه ،
 فمن الاذن الى اللسان ، ومن اللسان الى الضياع والسيان . وهكذا فقدت معظم
 مبتكرات العربي في الجاهلية ، وما نهدر الى العصر الذي جاء عقب العصر الجاهلي ،
 نهدر ناقصاً مبتوراً ومشوهاً مسوخاً ، لا يمكن الركون اليه ولا الاعتماد عليه ،
 الامر الذي جعل المؤرخ في وضع لا يحيط لا بمدى الحياة الفنية للعربي في الجاهلية
 فحسب بل بمدى تأثره بحضارات الامم المجاورة له ايضاً . ولكن هذا الوضع الذي
 كان عليه العرب في الزمن الجاهلي ، لم يجل بينهم وبين الاتصال بمدنيات الامم
 المجاورة لهم ، فقد كانوا يقومون برحلات ، رحلة في الصيف ورحلة في الشتاء ، الامر
 الذي اقضى بهم ، الى التعرف على حضارات واشعة في القدم ، وان كان اثر هذه
 الحضارة ، لم يتجل في حياتهم الخاصة والعامة ، الا بعد حقبة من الزمن ، فقد ادى
 اتصال العرب بالامم المجاورة لهم ، الى اشياء كان لها اثرها البعيد ، في تاريخ الغناء
 العربي ، فقد تعلم الحارث بن كلدة ، خلال زيارته للحيرة ، الضرب على العود والغناء
 عليه ، ونقل ما تعلمه الى مكة المكرمة ، حيث علم اهلها ، القيان ، الضرب على
 العود والغناء عليه ، وتعرف العرب ، بفضل تلك الرحلات ، على انماط جديدة من
 الغناء العربي ، على انماط لا مثيل لها ولا نظير في تلك الصحراء المنطوية على نفسها
 والمستغرقة في ذاتها ، فقد حضر حسان بن ثابت ، مجلساً غنائياً من مجالس جبلة بن

الايام في الشام ، وغنت في هذا المجلس عشر قيان ، خمس عدا ، هل الحيرة ، وحسن
 عدا ، لروم ، وهكذا لاحظ ان العرب في الزمن الجاهلي ، كانوا في عزلة تامة
 عن سائر الحضارة في البلدان المجاورة لهم ، بل كانوا على اتصال بهذه الحضارة ، وقد
 ذهب المستشرق « فارر » الى ان بعد من هذا الحد ، دول ان يصل العرب بالامم
 المجاورة لهم يرجع الى عهد بعيد في تاريخ الانسانية ، فبعد الالف مؤامرة من السنين ،
 كان العرب على اتصال وثيق بحضارة الآشوريين والفيثيين والعبانيين وان تشام
 قديما ، كان دقة ، بين ثقافة الشعوب السامية ، لا سيما فيما ينص عليه اعبيية ، حيث
 تلعب الموسيقى اروع دور ، حتى ان اسماء الآلات الموسيقية عند العرب ، اشتقت
 من اسماء الآلات الموسيقية لدى الشعوب السامية ، مثل (اطل والور) وما الى
 ذلك . ومما نكن وجهة نظر المستشرق « فارر » ، « لامر الحديدي » ، لاحظ ان
 الذي تحدث اليها ، من موسيقى العرب في الزمن الحديث ، كان محدود الاثر ضيق
 النطاق ، فقد عرف العرب ، على القصب والبراع والمارمير والاوتار وضربوا بالدف ،
 وناسبوا كما يقول ابن خلدون بين السمات (مبسطة بسيطة يدركهم لطبع بدون
 تعليم شأن البساط كماها من الصائغ) ولم يكن الموسيقى عندهم ، تعني ما عنده
 لدى الاغريق ، ففهم هذه الكلمة في تصانيفها (الشعر والرقص والفلسفة والبلاغة
 وفقه اللغة والرياضيات) هي ما أطلق عليه في القرن الثامن عشر اسم « العلوم
 السبعة الحرة » ، وانما كانت الموسيقى في شعر الجاهلي ، لا تعدو التزم ، شعر ،
 فقد اعتبر العرب ، التزم ، شعر غناء ، اما الآلات الموسيقية ، فما كان لها ثورها
 البارز في تاريخ الموسيقى العربية في العصر الجاهلي ، اذ كان عربي داك لروم ،
 يؤثر سماع الغناء الصوفي ، على العرب لآي ، ايسى له بذلك يدوق معاني الشعر ،
 تدوقا صافيا مجردا ، اما الآلة الموسيقية ، ولا مهمة لها الا مرافقة الغناء لصوتي
 والتنميد له ، وهكذا قامت عناصر الموسيقى عند العربي على شعر وحده ، في
 الوقت الذي قامت فيه عناصر الموسيقى عند الاغريق على لتراجيدي .

ولكن هذا التفاوت في مقومات الموسيقى عند العرب و لاغريق ، انما يرد الى

الوضع الجغرافي للجزيرة العربية ، ولتراحيدي لا تنبت في ارض قاحلة جرداء بين طهراني قبائل متسلقة جوية ، لا شيء يربطها بالارض ، وانما تنبت في رقعة نوطدت فيها الحصاره واقت مظللتها على كل ما حوفا ، واداك كان هذا الوضع الجغرافي ، هو المسؤل ، الى حد ما ، عن هذه النتيجة ، فان هذا الوضع ، هو المسؤل ايضا ، عن اناسم العباء العربي ، بمس التعريد ، فقد قصت طبيعة هذه الرقعة القاحلة الجرداء ، وندرة المترامية الارحاء ، حيث الدنيا شواظ من لخب ، قصت على العربي ان يعيش ، لا يس له في ترحاله غير صفة ، بشها بجواه وودعها شكواه ، ولا ظن له في هذه ، عرجية نائية أو محلة قاصيه ، في هذا الهدوء الكامل والسكون الشامل ، كان العربي يعكف على نفسه ويستغرق في تأملاته ، حتى اذا جاءت حواطره ، رجع ما يضطرب في قلبه ، رجع ذلك على نغم شعبي عزين ، فيه عمق الصحراء وامداد الصحراء ، كان يعيش وحيداً في دنياه ، وحيداً في ذلك العالم الرحب ، فانسيت اعمه التي اودعها احاسه المرفف ، بالوحدة ، الوحدة اللامتناهية في تلاشيها الحالم ، كان بنوم ، ولا انسان يتوهم الى جانبه .

كان ينشد ولا احد يشد معه وحيداً في حله وترحاله ، وحيداً في همس الشكوى واث الجوى ، في رقعة متحاربة الارحاء ، بفحيح العجير ولفع الرضاء ، على حين ان طبيعة البلاد المعتدلة او الباردة ، فضت على ذلك الدين بعبشون بين طهرانيها بحياه مشتركة ، اذا غنوا ، غوا معا ، واذا ونوا ، رثوا معا ، فاذا صفنا الى ذلك ، النفسية الرومانتيكية لطبيعة الشعب العربية ، هذه النفسية التي تعلب عليها الصفة الفردية اوركبا الاسباب التي ادت ، الى غلبة غناء التعريد ، على هذه المجموعة . ولا ريب ان كل عنصر وكل وسط له اثر في طبيعة الموء يقى حيث يتجلى هذا الاثر في الالان والانعام ، وقد كان لمدين العامدين - العصر والوحظ اثرهما في تحديد آفاق الموسيقى العربية في الزمن الجاهلي ، كان الفكر العربي خلال هذا الزمن ، فكرا تعوره للمعاني ، لا فتقوده الى حصاره يستمد منه القيم والمثل والمفاهيم ، فكانت الحانها بسيطة سهلة لا تحمل في تضاعيفها المعاني الواحرة والحياة ، لان المعاني الموقورة لا تنبعث الا في حضرة موقورة ، والحضارة هي صنع يد الانسان ولا شيء مثل هذا الصنع في صحراء جزيرة العرب ، ولكن هذه (المنامية البسيطة) البساطة التي

وافقت الموسيقى العربية في العهد الحلي ، كانت من القوة بكان ، إذ كانت تنحارب
تجاولا صادقا واقعيا ، مع مشعر العربي وعراطه ، ومن هذه الصورة الحقة الصادقة
ابتثق جمال الفن الجملي ، كان العرب في ارمس الحلي ادا عي يعرب في غناؤه ،
عما يحيش في صدره ، ويضطرب في قلعه ، واذا لم تكن للموسيقى عذبه
ارابد ، فقد كان هو نفسه رمرها الحلي ، كان رومنا يتسكب في طبيعته ، فاردع السماء
اعماه ، وارسلها في الاجواء ، متموجة متوافضة ، عى موجات السراب وتراقصه ،
ومتهادية مترجحة ، على نهادي وترجع الدائم في الواحات المشرقة ، وكان هذا
العربي الجملي ، البسيط السدح ، يعرف ما للموسيقى من اثر نفسي ، فقد كانت
المرأة العربية لا تدع انسا يدام الا على عاء ، لثلا يسي اهم والحن اليه ، وكان
هذا العربي الجملي ، اذا اراد التقرب الى الملوك ، تقرب اليهم بقبه ، فقد قدم مائل
وعقيل اب فاصح ، هدية لخدمة الابرش ، وكانت هذه هدية فية تدعى «ام عمرو»
في تلك الرقعة اعترابية الارجاء ، كان العربي يصي وجيدا فريدا ، لا أبس ولا
ميمير ، وعى وقع مدسم الابل ، كان يحدو ، وفي هذه عبقة مديدة ، يساب
الحداء ، دون ان تردد الصعراء ، لخدمة صدى .



يقول بعض المؤرخين لعرب ، ان الحداء اصل لعاء ، وان مصر بن تزار بن معد
هو واضع اصل لعاء ، فقد سقط عن بعير له في بعض اسدوره ، فاكسرت يده فععل
يقول . وايداه ، وايداه . وكا من احسن اس صوتا ، فاستأنت الابل وطاب
لها امسير ، فالتخذ العرب حد ، برجر الشعر وجعلوا كلامه اول الحداء من قول
الحادي :

يا هادبا يا هادبا واب يداه ، يا يداه

وهكذا كانت الحداء اول السماع والتراجع عند العرب ، ثم اشتق العاء
من الحداء .

ان هذه القصة التي تروج ، الكتب الادبية العربية القديمة ، قرب الى الاسطورة
مها الى الواقع ، فالعاء هذا الفن القديم ، كان دنا في جزيرة لعرب قبل مصر بن
تزار ، كانت الامة العربية في الجاهلية ، امة وثنية ، وكان هذه الوثنية طقوسها

وعبادتها ، وكان العناء ظاهرة طبيعية ، من طواهر الآداب الدينية في العقيدة الوثنية ، لأن لادين في زمن اقديم ، كانت عبارة عن طقوس اكثر منها معرفة ولم اصحت المعرفة دعامة الادين ، احدث لطقوس لنفسها صفة ومزية ، فالعربي الذي يقدم آلهة المحبة او المشتركة ، كان يتقرب الى هذه الآلهة بالاشيد والتوازل ، به كان يعمل ذلك منذ اليوم الذي حمل فيه (عمر بن لحي) هم (هبل) من بلاد الشام الى مكة ، وكان للعرب (الطوائف) ويقول ابن هشام في سيرته ان العرب كانوا يعظمون صوت الطوائف كعظيم الكعبة (هذا سيدة وحبوب تسمى لها كاتدي الكعبة وتطوف بها كطوائفهم) وسبحر عندها) وكان العربي قبل اعتناقه الوثنية ، وبعد رئيسه طيور غيره من الشعوب البدائية ، لهفوى الطبيعة ومجد عاصرها ، وتقرب اليها صوته وعبادته ، وكانت هذه الالهة ، فاسية جبرة ، فكالت الصلوات كما كانت اعبادات ، زراعة وجدانية ، فيها الشيء الكثير من الاستعفاف والشيء الكثير من الاستعداد ، وكان العربي مثل غيره من اساء لاجيال الحالية ، احبب الالهة والاحلام ، يعتقد ان عاصره شريرة تعمل جسده فتفقد راحته ويحرق حياته ، فكان يلجأ الى الكهان والعرافين ، انه يجد لديهم العزاء والشقاء ، فيطردوا العاصره الشريرة التي حلت فيه ، ونحن نعلم ان جريرة العرب ، كانت ترحل في زمن الجاهلية ، بمشال هؤلاء الكهان والعرافين مثل (سطوح وشق) وغيرهم ، وكان الكهان - والعرافين ، يرددون التعاويذ بصوت مرتل وكان يصعد - الصوت المرتل - كما هو الحال لدى بعض الشعوب البدائية - حرب على آلات الموسيقى المعروفة في ذلك الزمن ، فأين ذهبت هذه الموسيقى ؟ ومن بددت هذا ذلك العهد ؟ وهل عاش العرب حياتهم الاولى ، على خلاف جهازية لشعوب التي كانت مثلهم في البداوة والوثنية ؟ لقد عاش العرب ، كما عاش غيرهم من الناس ، كانت هم عقيدة ، وكان لهذه العقيدة طائفتها المقررة ، وكانت ترق هذه الطقوس موسيقى ، موسيقى صوتية وغير صوتية ، موسيقى كانت تسمى بالوثنيين اي صرب من اهرس الصارخ ، هذا الموس الذي عرف في القديم لدى (الارواح) وكان النواة الاولى للاحوال والمواجيد . ونحن نلقيا نظرة ، على الكتب التي وضعت عن طقوس العبادة

الوثنية في العصر الجاهلي ، نلاحظ ان العرب في هذا العصر ، كانوا يؤدون عباداتهم على صرب غدا في بداي ، فقد كتب صلاه العرب عند البيت الحرام ، مكاهرتصدية يطوفون وهم عراة يصعرون ويصمرون ، كما ان العداري كانت ترقص حول الاصنام رقصه (الدور) ، وقد اشهر امرؤ القيس الى هذا الصرب من ارقص الديني حينما قال .

فمن لـ صرب كنـ معجـه عـري دـوار ، في ملاء مذبح
وما يقل عن رقصه و الدور ، الدينية يقل ابدا عن رقصه به نبي دوس
حول صم دي الحصة ، قد اصف الى ذلك اللبنة ، هذا لانتقال المسجع الذي
وضع على نحو موسيقى ، ادركا حالة الموسيقى بالطقوس الدينية العربية في العصر
الجاهلي .

من كل هذا يتضح لنا الدعوى القائله ، بان جذاهر اصل النساء عند العرب
دعوى لا تقوم على اساس من الصحة ، لان الجداء ليس هو في الحقيقة غير صرب
من ضروب النساء العربيه دون من الزان لاء في المهية ، فاداعنى الاسات
هل ان يتكلم ، كما يقال ، كان معنى ذلك ، ان حول النساء منها كانت بسيطة
وما كانت به دقة ، كانت معروفة لدى امري منذ القديم ، والعربي مثل غيره
من الناس له ادبه ، وهذا لاذ فاقوا الخاص ، فهي تجتوي الصوت الذي لا
يخضع لقانون مرصود ، بجوي هذه الذي لا صوت له ، فهي اد تصغي الى اشيد
الحادي ، لتضع من الجداء حول النساء ، كتب تصغي الى اصوات اخرى ، الى
اصوات عرفت في التاريخ ، فمن صوت مصر من برار .

ان العربي هذا الكائن الحي الواحد في طبيعته النفسية ، عاش مرهف الحس في
في مختلف مظاهر حياته الروحية والمادية ، وقد اراق هذا الحس المرهف ، على
ناشيد حربية شجبة في حب ، وناثره متوردة في حب آخر ، ولكن هذه الانشيد
قدت رصاعت ، في اوص العراء ، لارض التي ما افتت على رسم ، اما الناريح
ولا يحدثنا الا عن (الحردفين) ، ان كتب في حورة عبد الله بن جعدان ، كما
ان الناريح لا يحدثنا الا عن عمار الصب ، وهذا النساء الذي كان على ثلاثة
اجساد (لساد الخفيف ولساد الثقيل وامرح) ، والذي افترض وذهب

أنايد دون أن يعرف عنه شيئاً ، أما المجالس العشائية ، فقد كانت مقتصرة على الدور والمذلل والحليم والاسواق التجارية الموسمية كسوق عكاظ وفليب بدر ، وما إليها ، ففي هذه الاسواق ، كانت القبائل تعمي وكن الرجال يشربون ويطربون .



كانت الحرب بالنسبة للعربي ضرورة حيوية لا بد منه ولا غنى عنها ، فالأرض القاحلة الجرداء التي يعيش فوقها ، ما كان في مقدورها ، أن تؤمن له حياة آمنة مستقرة ، حياة يجدها الماء والكساء ، فهو لا حزن عدير ومرعى كلاً صغير ، يقلل ويكافح ، لا بل انه كان لا تتورع عن اغتصاب ما يحوره غيره من غنم وابل وخيل ومنتع ... كان يفعل ذلك ليؤمن بالمرعى معاشه ، فالحرب عند العربي ، حاجة طبيعية ، حاجة مستغنى عنها البقاء وإرادة الحياة ، هو لا يحارب ليعتق قوة النشاط المتوفرة لديه ، بل ليضمن ما يبقعه ويطعمه ما يعموره ، ومن القيم المادية ارتفعت عند العربي قيم المعونة ، فانتجت كل حاجة من حاجاته ، بسعة منى ، والحرب هذه الصلوة المادية المطلقة ، أصبحت فكرة رفيعة سامية ، فكرة لها ميزان وفصلتها ، وهكذا تمت تأثير الأوضاع الطبيعية للبيئة العربي ، أصبحت الحرب معروفة الحياة فهو يغنى بالشجاعة ويشيد بالأقدام ويتباهى بالحرارة ، لأن هذه الاشياء محنة ، ديمومة حارة المرعبة والقبيلة .

في عمرة النصال لأجل البقاء ، كانت تلهي فصد الحمة والعمر ، وكانت هذه القصائد تنزل وتعمي ، أن العروس العربي الذي يعوض غمرات المعارك ، كان يندفع وقد نللكه هوس جارف ، كان في حى هذا الهوس ، يشد لحماً مشتركا ، توافقه وغاريد النساء في حين ، وقرع الطبول و لدور في حين آخر ، وكان هذا العارس اذ يثوب من المعركة ، وقد عقدت على هامه أكليل النصر ، يستقل بالاناشيد المدوية ، اناشيد تعدد مناقب العارس ومآثر القبيلة ، وفي زهوة الحياة كانت تتعاضد الانغام ، وهي تعبق بأربع المجد والبطولة ، ولكن هناك ، هناك في بعض الحيات ، كان يرتق مآثم ، أم فقدت وحيدها أو روجة حشرت معيها ، في هذه الاحياء

الحياة الانوار كانت حشرات وكائنات وهرات ، ومن هذه وتلك ، كانت
تفسير الحان شعبة حريئة ، الحان نام .

ولكن الرمن لا يلبث ان يطرد الایام في سحله الایدي ، فتشرق في الافق
شمس جديدة ، شمس راهبة ضاحكة ، نحمل معها ارادة البقاء في صورة حب لا في
صورة حرب ، هنا يتوارى شبح (مارس) ليطن طيف (كويد) ، هنا تقمر
كل شيء ، البسمه السخمة والبطرة الخلة ، فنورق الحياة ونشع ، واد بندق الواحات
تتألق بانوار عاشقين متيمين ، في هذه الساعات الالهية ، ساعات همس -
الشكوى وبث الدعوى ، مجيش لراطر ، من الافكار والمشاعر ، فيعني العاشق ،
يعني شعره ان كان شاعرا ، او شعر غيره ان لم يزل موهبة نظم الشعر ، اما اولئك
الذين لا ينظمون ولا يفردون ، فلا يعنون ولن يعنوا .

من ذا الذي لم يقرأ قصة (دودة حبلص) هذه القصة التي تحدثنا عن امرى القيس
وهو يعني شعره لابنة همه (غنيزة) ؟

لقد احب الشاعر ، حبا سكب فيه شعره في نعم ، هكذا كان حب معظم
الشعراء ، كان شعرهم حيا ، حيا يرتونه وبها يرددونه . ولكن الحب هذا الولد
الجبار المقنن ، ما كان دائما ابداً بالكائن الامين الوفي ، كانت له نزواته
القاسية المردة ينطق وبمضي دون ان يلقي نظرة على تلك القلوب الممددة ، هذا يقف
العاشق ليلدب حظه العتري ، ليكفي الايام الحارة العذبة ، الايام التي نعم فيها بدفء
الحب وحرارته حيث الدفء ربيع والعمر زهر ، هنا يقف العاشق وقد احتواه حزن
يتم حزن ، اسان عص يده من كل شيء . ومن الاعماق تصدر آهات ، تصدر وهي
تندرج على ابقاع شعبي فتجعلها الاصدا بها شعربا ، بها نالعت منه الدفء العبية
الحالدة .

وهكذا كان الشعر مدوة العناء عند العرب ، شأهم في ذلك شأن غيرهم من
شعوب الارض وكانت الهلة بين الشعر والعناء قوية وثيقة كانت الحان العربي
في الجاهلية - هاته بسيطة ، وكانت هذه لالحان سهلة بسيطة توفع بتعداد معين بتجارب
مع مقاطع البيت الشعري اما الاروان فقد كانت تضبط بالضرب على الدف .



الغناء في صدر الاسلام

كان عهد صدر الاسلام ، عهد نضال لا هوادة فيه ولا لين معه ، نضال بين دعوة جديدة تريد ان تخلق طريقها في هذه الحجة الدس ، وان تبدع لنفسها مكانا تحت الشمس ، وعقيدة قديمة رجحت في النفوس وتاهلت في القلوب ، فلم يكن والحالة هذه اي متسع للرواي بحول لغت ، كانت الدعوة الاسلامية دعوة هدامة انشائية ، هدامة للوثنية ، وما تشتمل عليه هذه الوثنية من صفوس وتقاليد وعادات وانشائية من حيث تزوعها الى اقامة دين جديد ، له هواعده الجديدة وانظمته الجديدة ، وكان لابد والحالة هذه من شوب معركة حامية بين هذا الدين الجديد في نظوره ونصويره لعالم الارض والسما ، والدين القديم الذي كان يحرص اتباعه كل الحرص لاسباب مادية ومعنوية - على حضرة ومستقبله ، وتراثه ، مهما كان اثر هذا التراث ، كان لابد من شوب معركة بين المعكرنين ، فتبعي كل فريق بمجاهده وبشيد كل جانب بآثره ، يحرف عن المعزل والمشتبب الى دعم العقيدة التي يؤمن بها ويأخذ بأسبابها ، واثوى في هذه الحفنة من ارمن ، كثر يتبعي دين آباءه واجدادهم ، كما كان يعد القصائد الممدحة ، يتبعي بها باللائمة والثوب على اولئك الذين تركوا الوثنية وهجروا دين الاء ولاجداد ، وبعض بناء قومه على التمسك بالدين آموا بالدين الجديد ، والمسلم في هذه الحفنة من لرمين ، كان يتمتع بالصبر ويلوذ بالجلد ، ويتوجه الى الله وفي القاب امل رحر وايمان وافر ولم يكن في مقدور كل مسلم ، في بدء انشاء فجر الاسلام ، الجهر بما يعتقد به كان يعلي في حقبة عس اعين مشركين ، من اقرآان امان الصلوات وعسير الصلوات ، بصوت ساكن حافظ للالاسم ، مشركون ، فبال من اداهم بالاطافة لالسان مثله ، ولم يحجر لملكون . حلال الا بعد سلام عمر بن الخطاب فقد دوت بطعم مكة المكرمة ، بصوت دلال الحبشي ، هذا الصوت اول صوت رددت اصداؤه ارجاء البلاد المقدسة .

لقد كان هذا لصوت فاتحة عهد جديد في تاريخ الاسلام كان يوق بمصدر

المشركين بان الاسلام اصبح قوة وان العكسة باتت حرة وان هذه الحربة ان
تعمد وتلقى في الحربة بعد اليوم، كان هذا الصوت مندادا لعاطفة مكبوتة، لعاطفة
ظلت سنوات طوال، وهي حبيسة سجن، وهي دي الان تنبش اي الادهان
مدوية في اهاب نغم جميل . ان هذا الصوت العلو الرخيم الذي رددته لال الحبشي
كان منارا النفت حولته قلوب المؤمنين فرددوا معه صوت واحد شعار الدين الجديد
ها بلى هنا شعور المخلصون بوحدة عميقة شاملة تربط بين بعضهم بعض وحدة احكم
عراها صوت جميل ينادي (الله اكبر) .

وهكذا كان العناء وسيلة من اكبر وسائل تحقيق التسام بين المؤمنين، حيث
تجبي هذا التسام في عناء يصدر عن قلب واحد، ولسان واحد وقد ادركت الاديان
القديمة اهمية هذه الحاجة كل الادراك لا الديانة الوثنية فحسب بل الاديان السهاوية
ايضا، فقد دمجت الديانة المسيحية العناء مكانه عظمى وذهب القديس (جان
كويروستوم) الى القول (ليست تريلة غير صدى اما نقاد لثرانيل الملائكة
وإذا كان الانسان موسيقيا وذلك بالهام من لروح القدس)

وكان العناء في مسهل عميد المسيحية مقتصرأ على ترنين الكتاب المقدس
كان يقوم به المممة قاريء خاص له مواهب صوتية معينة وكن جمهور المصالح
يردد معه بين حين وآخر :
آمين . الحمد لله

ثم ما لبثت الكنيسة ان احدثت الآلات الموسيقية على الصلوات، كما عمدت
الى نظم قصائد غنائية تنعني بالمجد لسيدة العذراء والقديسين والشهداء، وما بسطت
المسيحية سلطتها الفكرية على روح العالم القديم، احدثت فسط كبير من الموسيقى
اليونانية و الرومانية .

هكذا شأن العناء في العقيدة المسيحية (الترانيل تقيد الترانيل الملائكة
والموسيقى اهدم من روح القدس) ام الاسلام فقد كانت نظرتة الى العناء غير
هذه البضرة، ظهر الاسلام في جزيرة العرب واهم يكن عناء العربي في الطاهية يعدو
الحدا والشيد ومادة شعر محدودة الالون و الاشكال، وكانت طبيعة الجزيرة

العربية ، طبعة متحمة قاسية الامر الذي اصفى على العربي طبيعة حاضرة ولم تكن في جزيرة العرب حصرة وارفه مثل حصرة اليونان والفرس والرومان حتى يزهو الفن ويسمو وبشع وتتناثر حياة العربي المادية والمعونة عظام الحضارة المختنعة حتى وثنية العربي كانت وثنية محدنة فاحلة لا تنصع برواء ولا تستريح في طلال افياء ، لم تكن فيه تلك (المسينولوجيا) مضخة بالروى والاحلام والتصورات وقد ظهر الاسلام في مثل هذه الرقعة من الارض ، ظهر وهو يحمل في تضاعفه رقة وعدونة ورهوة وقوة ظهر ليبدل عقبة وعسبة رقعة مترامية الاطراف ، فالتقى الوجه الحديد بالوجه القديم ، كان صوت الرجه الاول في مستهل عمده ، يتسامى الى الادهان هامساً خافئاً يرتل القرآن بصوت رقيق نغم فيه خراعه مؤمن يعذب وبصطمد وينج بكاء اى الله ، هذا الشند ساعد الاسلام احدث هذه الصراعة الوجدانية لنفسها صوتاً آخر صوت الشكر شكر الله تعالى على ما اودعه على المؤمنين من نعمة وفصل اذ بدل حورهم بأمن ، وصعدهم بقوة ، ولما حققت راية الاسلام فوق جزيرة العرب ، استحال ذات الصوت ، صوت الشكر الى صوت ثقة ، ثقة بالله والاسلام ، ثقة انسان بات يعتقد بان المستقبل له . والتاريخ معه .

ومن خلال هذا كله ، كان صوت بلاد الحبشي يتعالى ، يتعالى داعياً المؤمنين الى الصلاة في هدأة الصبح وعموة العسق ، كان هذا الصوت الرحيم يدوي .

ولكن الى جانب هذا الصوت ، كان صوت آخر ، صوت الحرب ، كان هذا الصوت في صدر الاسلام ، تواصل متلاحقاً متناه ، فقد كان المشركون لا يدعون ساحة تمر الا انتهروها للتوجيه الالدى للبي ولداهم كانت طبول الحرب تفرع في كل وقت ، فمن غزوة الى غزوة ومن فتح الى فتح ، وصرح لاسلام يرتفع حجراً فوق حجر وسوراً فوق سور ومكن الله للاسلام في جزيرة العرب وشغل القرآن الناس عن كل شيء بات القرآن المثل الاعلى لكن مسلم ، يتوره ويرثله انه اللبس واطراف النهار .

جعل الاسلام للعبادة غاية ، وعاية مقدسة بيبة ، بحيث ان الانسان لم يلد عبثاً ولم يشأ عبثاً ، بل ولد وشأ ليؤدي رسالة في هذه الحياة الدنيا . وهذه الرسالة هي لصال لا يعيش الانسان حيثما اتفق من يعيش كما يجب ،

ومن هنا انبثق فجر ثورة الاسلام ، فقد كان على هذا الدين الجديد ، ان يحتل مكان عقيدة قديمة وان يبشر بمثل اعلى له قيمته وله معانيه ، بين ظهري شعب لا يؤمن بمثل هذا المثل ولا بقيمه ولا بآفاهيمه ، واذا انصرف الاسلام في مستهل عهده عن كل ما لاصلة له بحركته ومفكرته ، فذلك لان هذه الفكرة وتلك الحركة كانت كل شيء بالنسبة لدعوته ، ومع هذا فالاسلام في مثله الاعلى المنبثق عن الواقع ، لم يتخذ موقفا سلبيا مطلقا من العناء ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخل علي ابو بكر رضي الله عنه وعندي (جاريستان من جوارى الانصار تغنيان) يا تقاولت به الانصار يوم (بعث) فقال ابو بكر : امزمار الشيطان في بيت رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابا بكر ان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا .

وكان ذلك اليوم يوم عيد .

ودخل ابو بكر على عائشة في يوم من ايام منى ، وعندها جاريستان (تدقات وتضربان) والنبي صلى الله عليه وسلم منعش ثوبه ، فانتهرها ابو بكر فكشف النبي صلى الله عليه وسلم غصده وقال : دعها يا ابا بكر فانها ايام عيد .

وروي عن عائشة رضي الله عنها : كانت جارية من الانصار في حجرى ، فزففتها فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء فقل يا عائشة الا تبغين معها من يغني فان هذا الحظي من الانصار يحبون العناء .

ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم احاديث جاء فيها (ما بعث الله نبيا الا حسن الصوت) وفي حديث آخر انه اشده اده الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القببة الى القينة ، وقال النبي في مدح ابي موسى الاشعري (لقد اعطيت مرامرا من مرامير آل داود) وروي عن زوج درة بنت ابي لهب قل : دخل علي الرسول صلى الله عليه وسلم حين تزوجت درة فقل هل من لهو ؟

واستقبل اهل المدينة النبي وهم ينشدون

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فلم ينكر النبي انشادهم .

وكان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تعني تدعى زينب ، قال جابر ان عبدالله : تزوج بعض الانصار بعض اهل عائشة فاهتمت الى قباه .

قال الرسول : اهديت هروسك ؟

قال : نعم

قال : فارسلت معها بقضاء ؟

قالت : لا

قال : فادركيها يا زبيب .

وقد سمع الغناء من الصحابة ، عبدالله بن جعفر ، وابن الزبير ، والمغيرة بن
شعبة ، ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم . ومر عمر بن الخطاب برجل يتعنى فقال :
ان الغناء زاد المسافر

واذن عمر بن الخطاب لرباع بن المعتوف ان يعي اصحابه الذين كانوا معه في
طريقه الى الحاح ؛ ليقتصر عنهم الطريق والمسير ، وعي رباع بن المعتوف ايضا للعجاج
وهم محرمون ، وكان من بينهم نفر كبير من الصحابة والتابعين والانصار .
وقبل ان ابا بكر يرحل عن التمرض لسوء كنى بعين ويطلبن في يوم عيد .
وكانت عند حسان بن ثابت شاعرة التي ؛ مولاة تدعى شيرين او سيرين هي امثلة
هزة الميلاء .

وقد اعتبر النعمان (اي العرب بالدفع) من السنة فقد روي عن الشعبي قال :
مر عباس الاشعري في يوم عيد فقال :
لا اراهم يفلسون فانه من السنة .

من كل هذا يتضح لنا ان الاسلام لم يقف من الغناء موقف المباحض له المتجني
عليه ؛ وهو ادوقف ، هذا الموقف لم يقر الغناء الذي لا تنفق مع رسائنه الاخلاقية
والاجتماعية ، واستمع النبي صلى الله عليه وسلم للغناء وامر باستماعه كما يقول النويري
ولكن الغناء الذي هناه العراقي بقوله (الذي لا يقصد منه الاحلال) فقد كان الناس
اجان حملات الردف يصرون بالدعوى والمزامير ، وكان الناس خلال ايام الاعياد
يسمعون الى الجوارى وهن يغنين ويمرغن ، وكان الناس في هذا العصر يتعمقون
بالشعر ويرجعون القراءات . كانت هناك اصوات وآلات ، دف وبراغ وقصب
واوتار ، كانت كل هذه الاشياء قائمة موجودة ولكنها كانت مقيدة بوارع وبشي صبيح ،
بوازع يفرض وجوده ، فلا يستعجب من السماع الا ما يحرك الصفات المحمودة .

العصر الأموي

كان العصر الأموي عصر انتقال من بداوة الى حضارة ، من حياة قاسية مريرة ، الى حياة ناعمة غضة بديعة ، فقد بسط العرب خلال العصر الأموي سلطانهم على معظم رقاع العالم القديم ، موئل الحصارات ومقفل المدينيات ، فتعرفوا بذلك على ما كان عليه هذا العلم من تقدم واردهار ، فتاثروا بما تعرفوا عليه وما اتصلوا به الامر الذي ادى الى تطور نظر العرب الى الاشياء كما ادى الى تطور تصويرهم وتصورهم لما يحيط بهم .

لقد اتصل العرب بالامم المجاورة منذ امد بعيد ولكن هذا الاتصال كان ضيقاً محدوداً ، لا يعدو زيارات شخصية ورحلات تجارية ، فلما صدر الاسلام امتدت آفاق هذا الاتصال واتسعت رقاعه . مواكب متلاحقة من الجزيرة العربية تندفق الى البلاد المجاورة وغير المجاورة ، الى البلاد التي خربت بسهم وافر في الحصاراة وظهرت بنصيب كبير من المدينة . ومواكب واخرة من ابناء تلك البلدان تغدو الى الجزيرة العربية لتقيم وتستوطن في طين الاماكن المقدسة حاضرة الاسلام في ذلك الزمان . وعقيدة واحدة تؤلف بين مشاعر وافكار ، تطرح بالماضي وآثار الماضي لينبت مكانه حاضر ابدي الجدة في تطلعه المشرئب نحو المستقبل . تضامرت كل هذه العوامل على ابداع جيل جديد ، جيل تطورت عقليته ونفسيته ، واصبحت نظراته الى القيم والمثل والمفاهيم ، نظرة انسان يشعر بوجوده ويحس بشخصيته ويؤمن بمعاني الحياة وحقيقتها وخيرها وحماها ، ولم تعد اصداه الصحراء تجده لديه مداها الحي ، لم يعد الحدا والصب والشيد يلقى من نفسه ما كان يلقاه في الزمن السالف ، بل صار يتطلب ما يتجاوب مع ما وصل اليه من تطور تاريخي ، فقد كان لهذه المواكب التي اُمت الجزيرة العربية ، واقامت في الحجار ، اثرها البعيد في حياة العرب الجديدة لاسيما في فن الموسيقى ، فقد كان في عداد هذه المواكب المؤلفة من عناصر مختلفة

فارسية وروسية وتركية ، واطلق عليها فيما مضى اسم « السبي » ، وأثارت دهشة الخليفة عمر بن الخطاب لكثرة عددها ، كان في عداوها من توفرت لديه مواهب فنية موسيقية فكان هذا الرهط من « السبي » يغني بالميدان والطاسير والمعارف والمزامير ، كان يفعل ذلك امام الجماهير المتهتدة ، كانت هناك صناعات تلعب بالصنوج وكانت هناك حبشيات شهت لمبهم عائشة في زمن السبي (صلعم) اما في الدور والمنازل فقد كان بين افراد هذه المواكب البشرية من يمت بأصرة بنسب الى بيت ملك او بيت امارة ، وقد جلب مع من جلب من اساء قومه في غزوة من الغزوات كان هذا العريق من السبي يودع الاطيان وهو يمارس عمله اليومي ، آلامه وأشجانه انه غريب الوجه والبند واللسان ، عادر بلاده وقد خلف وراءه مراتع الصب ومغاني الشباب ، وكل ما يربطه بتلك الارض العزيزة عليه والعالية لديه . خلف كل هذا وراءه لبقم في وسط غير وسطه ويث غير بيئته ، فكان اذا جاشت خواطره ولاحت له ظروف الماضي ، ورفقت حوله الذكريات ، آوى الى زاوية قصية يستعرض تلك الايام الساعمة الحلوة التي الفت مظلما على ديباه ، ولاحتته بكل ما بها من رقة وعذوبة ، فاردع كل هذه المشاعر المرهقة والحالة الحزينة الشعبة ، فتجاوبت ارجاء البيت الذي يقطن فيه بهذه الانعام ، واما خارج الدور فقد كان بين افراد هذه المواكب البشرية ، من يعمل في بناء المساكن الخاصة والعامة ، فكان الواحد منهم وهو يعمل يردد اثاني بلاده الاصلية ، يردد هذه الاعاني ليطلب الحياة في نعم ، وليجد في هذا النعم عراء وسوى مما فقد وعما اضاع ، كان هذا المولى الذي استعمل قوة عمله لتأمين قوت يومه ، يجهد في بعث بلاده الاصلية وهو يردد في بناء دور معاوية ، نفحة من نفحات ماضيه السعيد ، وكان الناس اذ يرون هذه المواكب البشرية ، وهي تعمل وتغني ، يقفون ، يستمعوا الى انعامهم وبصغوا الى الحانهم ، وهكذا اخذت الانعام والالحان غير العربية ، تطرق اذن العربي ، في البيت وخارج البيت في دنياه الخاصة وحياته العامة ، وكانت هذه الالحان وتلك الانعام من الرفقة بحيث انها لفقت انظاره ، ومن العذوبة بحيث انها استرعت انتباهه ، وهو الذي لم يعرف حتى زمن عمر بن الخطاب كما يقول الاصمعياني غير النصب والحداء . فمن هؤلاء الذين كانوا يعملون في بناء دور معاوية احد سعيد بن مسجع القصب ووضع اسمه العربية الجديدة .

كان سعيد بن مسجع ، مولى لرجل اختلف الرواة في اسمه ، ومها يكن الامر فقد
 لعب هذا الفنان دوراً حطيراً في تاريخ الموسيقى العربية ، فقد تومس فيه مولاة النسخ
 مندصره ، ولم يحب حدس سبده ولا تقديره ، فقد استطاع هذا ادلى ان يحول بحرى
 الموسيقى العربية عما نقله من غناء فارسي الى شعر عربي . كانت ادن هذا الفنان من
 صغره دقيقة مرهفة ، واستوعبت مائاهى اليها من الحان العرس ، وهم يعملون في بناء
 (الرقط) دور معاوية بن ابي سفيان ، كان اد يصي الى السوق يسمع فناءهم على
 بناهم ، فيقف ليصيح بسمعه الى تلك الاغانى المتسوجة المترافقة ، حتى اذا طبعته في
 خاطره ، جعل يرددها في خلواته ، ثم اضاف عليها كلاماً عربياً صافياً ، شعراً لابن الرفاع
 وغير ابن الرفاع ، حتى اذا تمكن من فقه ، اداع صيته وشاع . فالتف حوله شباب مكة
 وراحوا يقضون ايامه حفلاتهم وسهراتهم ، فقد استحسن الناس ما صنع واعجبوا بما
 ابداع ، ولكن هذا الابداع وذاك الاستحسان ، ما لبث ان آل الى نقمة ، فقد عز
 على اهل القيان ان ينتهي المطاف بفتياهم الى مثل ما انتهى اليه ، عبت ولهو ، حفلات
 وسهرات ، فشكوا سعيد بن مسجع الى الوالى ، ورفع الوالى عقيرته بالشكرى الى
 الخليفة ، وحمل سعيد بن مسجع الى دمشق ليقف بين يدي عبد الملك بن مروان ، وبغى
 له ، وبطرب الخليفة فبغدى عليه الهدايا والتحف ، حتى اذا عاد الى بلده ، عاد وهو مثقل
 بالهدايا والتحف ، هذا هو سعيد بن مسجع الذي وصف بأنه اول من وضع الغناء من
 المعنين ، واول من غنى الغناء العربي بمكة ، ولكن بعقربة سعيد بن مسجع ، لم تستد عناصرها
 من اولئك الذين (سمع غناءهم على بناهم) لم يفتح ابن مسجع بانتهى اليه من
 الحان محال الفرس الذين جيء بهم لبناء دور معاوية ، بل انه تحرى عن الفن
 الغنائي من يتابعه الاولى ، فقد شغص الى الشام وأحد الاغانى ، والى وارس فأخذ
 غناء وتعلم الضرب ، ولما عاد الى الحجاز أحد ما استحسن من فن القطرين وابعدع
 لنفسه طريقة في الغناء ، اعجب به الناس ، ومن تلك الصناعات التي جاءهم الى المدينة
 عبد الله بن عامر بن كريز ، أخذ سائب خاثر عنه الغنائي ، فكانت هذه الصناعات الممار
 الذي اخذ لسائب خاثر طريقه الغني ، حتى اذا وفد شبط الفارسي الى المدينة ، كان
 شبط معلمه واستاده ، والرجل الذي جعل منه ركناً من أركان الغناء العربي ، والفنان
 الذي وصف بأنه اول من غنى في الاسلام الغناء العربي المتقن الصنعة ، واذا كان سائب
 خاثر ، مدينا لانسان بما توصل اليه من عبقرية ، فهو مدين لعبد الله بن جعفر ، فان عبد الله

هو الذي اشتري شيطاً ، وكلفه بتعليم سائب ، وكان سائب حائر ، وفيما لعبد الله برأ به ، فقد انقطع له وآلى على نفسه الا يغني احداً إلا عبد الله بن جعفر او خليفة او ولي عهد او ابن خليفة ، وقد ظل سائب حائر حفيظاً على نفسه ، حتى قتل في معركة الحرة . وكما اخذ سعيد بن مسجع العناء من همال الفرس فكذلك فعل عبد الله بن مريع هذا المغني الذي وصف بانه اول من ضرب بالعود على العناء العربي بمكة . كان سعيد بن مسجع (معنا احوال اعمش) اذا غنى اسبل قبا على وجهه لئلا ينظر الناس من قبحه ، ومع هذا فقد نحى بصفات لم يتحل بمثلا . مطرب من المطربين ، قال عنه الاصمغاني (وكان ابن مريع ادبياً طاهر الخلق عارفاً باقدار الس) كتب الوليد ابن عبد الملك الى مصكة ان اشعه الي ، وما مثل بين يديه وغنى امامه ، قال له الوليد (لقد اوتيت امرأ جليلا) ولما سمعه عمر بن عبد العزيز قال (لله در هذا الصوت لو كان بالقرآن) وكان ابن مريع اذا غنى الس (اصغوا اليه بأذانهم وشخصت اليه اعينهم وطالت اعناقهم) وبلغ الامر بالشاعر جرير ان شخص اليه ، من المدينة الى مكة ليسمع غناؤه ، وكما توجه سعيد بن مسجع الى بلاد فارس والشام للافاضة من الفن العناني في هاتين المملكتين ، فكذلك فعل ابن محرر ، فقد ذهب الى فارس وتعلم اطلان الفرس واخذ غنائهم ، ثم صار الى الشام فتعلم اطلان الشام واخذ غنائهم ، واسقط كما نقول الكتب الادبية ما لا يستحسن من غناء العريقين ، واحداً الخمس فمزج بمضما ببعض والف منه الاعاني التي صمعا في اشعار العرب ، فأنى بما لم يسمع مثله وقد وصف ابن محرر بانه صاح العرب .

وهكذا تطور الغناء العربي في العصر الاموي تحت تأثير التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، الذي طرأ على ديار العرب ، فلم يعد العربي يقنع بما قنع به الجاهلي من حذاء ونصب وشيد ، بل صار يتطلب غناء يتشبع مع ما وصل اليه من تقدم ماوي ومعنوي ، فقد غنى سعيد بن مسجع بين يدي الخليفة عبد الملك ، حذاء عربياً صافياً ، فلما انتهى قال له الخليفة : انعرف الغناء المتقن ؟ قال بلى . وعنى سعيد بن مسجع غناء متقناً بين يدي عبد الملك ، فطرب الخليفة واجزل عطاء الفنان ولكن هذا التطور الذي طرأ على الغناء العربي في العصر الاموي لم يكن من القوة بحيث انه قضى بصورة نهائية على الروح العربي في الغناء العربي ، وضع المغنون للاعاني العربية كلاماً عربياً ، وغنوا الغناء المتقن ، وضربوا على العود بالغناء العربي

وذهبوا الى الشام وفارس ليحيوا الى ثقافتهم الموسيقية ثقافة موهوبة ، واخذوا
ألحان الرهبان فعلموا هذا كله ، ولكن الروح العربية ظلت مسيطرة على الغناء العربي
في هذا العصر ، فقد كانت الدولة ، دولة عربية بروحها وكيانها ، فظل هذا الطابع
مسيطرأ على مصادر الفكر ومطرح الشعور .

لم يحل انتقال الخلافة من الحجاز الى الشام ، دون مواصلة الفطر الجذري ،
اداء رسالته الفنية الفنية ، فقد كان هذا القطر ، معقل الغناء العربي منذ صدر
الاسلام ، مما انتهى اليه واقام بين ظهرايه ، من رجال صربوا بسهم واهل في فن
الموسيقى ، هؤلاء الرجال الذين وضعوا للغناء الفارسي الكلام العربي ، وغنوا
الغناء المنقن ، وضربوا على العود بالغناء العربي ، وذهبوا الى فارس والشام ،
لينهلوا من ينابيع الموسيقى الفارسية والرومية ، يصاعفوا بذلك ثقافتهم لموسيقية
هم الذين وضعوا الحجر الاساسي لمن الغناء العربي في الحجاز ، وجهودوا ، من هذه
الرفعة المقدسة من ارض العرب ، موطئاً لابتداء عصر الموسيقى العربية الحديثة ،
وبالرغم من استئثار الشام بالسلطان ، فقد ظل الحجاز محتفظاً بطبيعته الفني وهذا
الطابع الذي اعدق على الغناء العربي طوال العصر الاموي ، احمل الصور واجه
الالوان ، ظل الحجاز محتفظاً بهذا الطابع تحت تأثير عوامل مختلفة وبواعث
متباينة ، فقد افصى انتقال الخلافة من الحجاز الى الشام ، الى عزوف معظم
الحجازيين ، عن السياسة وما يتصل بالسياسة ، فالدين عر عليهم من ابناء
الصعابة والتابعين والاصرار ، التناحر القوم بين العرب على الحياة الدنيا ، عكفوا
على انفسهم وانطوا على دانيهم ، ورأوا في الزهد والنقش والنسك ، عزاء
الروح وطريق الخلاص ، وهكذا انفقوا قواهم المدخرة ، في تهجد غيبي ، حيث
يتلاشى الشعور بالحياة في آحاد اللاهيات ، والدين نظروا الى الحياة نظرة الرجل
الذي يتقبلها دون ان يشرب بعمقه الى ما شرب اليه اعناق الرجال العظماء ،
اطلقوا العنان لعواظهم ، وعاشوا بحواسهم المنبهة المتدفقة ، وهما الحياة في الحياة
وهكذا انفقوا قواهم المدخرة ، في منعة مطلقة . كان هذا المريق يمثل الطبقة
الارستقراطية ، الطبقة التي حين يبدا العمل السبامي ، فانصرفت الى اللعب
واللهو ، ترج اوقات الفراغ ، فيما يزج به الفتيان اوقات فر عهم ، وغلاً خواء
حياتها ، فيما يملأ به المتوفون المسرهون حياتهم في هذا الافق العطر ، الفوح الشذا

نمت الموسيقى العربية وازدهرت ، فقد وجدت لنفسها ، الوسط الذي يجذب عليها
 ويرعاها ، ويهبها قوة الانطلاق والامتداد ، في نطاق الاقن الذي تمتد نحوه
 وتنطلق اثره ، كان هذا الوسط ، وسط الارستقراطية الحجازية ، ارستقراطية
 الحسب والنسب ، ارستقراطية عاطلة عن العمل موهورة العس ، كانت هذه
 الارستقراطية الناشئة ، محرومة من السطون الميامي ، التي كانت تعتقد بانها
 وريثه الشرعية ، واما وحدها الجديرة به دون سائر الناس اجمعين ، البست هي
 سلبه اولئك الذين شيدوا دعائم الامبراطورية العربية ؟ البست هي حفيدة اولئك
 الذين مكثوا للاسلام في الارض ، وحملوا رايته وشروا رسالته ؟ كانت هذه
 الطبقة من ابناء الصحابة والتابعين والاصهار ، تؤمن بكل هذه الاشياء ، ولكنها
 كانت مغلوطة على امرها ، كان سيف ديقبس مسلطاً فوق رأسها ، اذا غردت
 انبورت لما قوات امية ، قوات جبارة مبيدة ، فانطوت على نفسها في تلك الصحراء
 المجدبة القاحلة ، انطوت على نفسها ، وهي تروى بابصارها الى ما حوفا ، وقد احرق
 حياها الحرمان ، الى ما تجده فيه عراء وسلى ، كانت هذه الطبقة غنية مومرة ،
 بما تحدر اليها من تراث ، وبما اداء عليها حلفاء امية من اعطيات ، وكانت تعيش في
 راد غير ذي زرع ، وكانت فتية موهورة الحيرة ، تشد مدى لفتوتها المتدفقة ،
 فاستسلمت لغزوات القلب ، في شيء من الرفق في حين ، وفي شيء من العنف في
 حين ، واستعاضت عن الطبيعة بالعناء ، وعن مراقي الوجود بالنعن .

وضعت هذه الطبقة الارستقراطية ، التي نبتت في ارض الحجاز ، نفسها موضع
 الحارس الامين ، للفن العناني في العصر الاموي ، اذا ناهض امن مناهض
 او عارض رجالة معارض ، ابورت للدفاع عنه وعنهم ، ولتنضال دونه ودونهم ،
 فقد عاب مروان بن الحكم والي الحجاز ، عبد الله بن جعفر لاقتنائه الجوارري
 المغنيات ، مما كان من عبد الله الا ان قل له . (وما علي ان آخذ الجيد من اشعار
 العرب والقيه الى الجوارري ، فبترعن به ويشدنه ، مخلوقين ونغماتهم ؟) وقدم
 معاوية بن ابي سفيان المدينة في عام من الاعوام مر بدار عبد الله بن جعفر ، فادا
 به يسمع غناء على اوتار ، فوقف ساعة يستمع ، ثم مضى وهو يقول « استغفر الله ،
 ولما عاد ، اذ بعبد الله يصلي ، فوقف الخليفة يستمع قراءته ، ولما انتهى عبد الله
 ابن جعفر ، مضى الخليفة وهو يقول (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله

ان يتوب عليهم) واتصل ما قبله معاوية بن ابي سفيان ، بعبد الله بن جعفر ، فاعد
 للخليفة طعاماً ودعه الى منزله ، بعد ان اوصى المعلى ابن صباد : (اذا رأيت معاوية
 واصعاً يده في الطعام ، فحرك اوتارك وفس) ، وجاء معاوية ، ولما هم بتناول
 الطعام ، حرك ابن صباد اوتاره وغنى ، فطرب معاوية وقبض يده عن الطعام ،
 وجعل يضرب الارض طرباً ، ها ، قال عبد الله للخليفة : (اى هو مختار الشعر
 يركب عليه معذر الاطيان ، هل ترى به بأساً ؟) فأجاب معاوية : (لا بأس
 بحكمة الشعر مع حكمة الاطيان) . وهكذا استطاع عبد الله بن جعفر ، ان
 يدفع عن الغناء بقية الخليفة وبقية الوالي ، هذا وعبد الله بن جعفر ، ابن عم
 رسول الله ، كان يقف الحواري وبحبي الحفلات ، وبشعري القبيان والمغنين
 المطربين ، فقد اشترى شيطاً الفارسي ، فعلم شيط الفارسي ، صائب خاسر اصول
 العناء وقراءته ، وبذلك مهد عبد الله ابن جعفر سبيل تقديم الموسيقى ، وساهم
 بصورة مباشرة في تطور هذا الفن . وكما عرف عبد الله بن جعفر بميله الفنية
 فكذلك كان شأن حمزة بن الزبير ، فقد انقطع المطرب معبد لهذا الامير ، وفي
 طله نشأ مالك بن ابي السرح ، فقد قدم مالك المدينة مع امه واخوته وهو فتى ،
 بعد ان اضر بقومه الجوع ، فكان عليه ان يذهب الى دار حمزة بن الزبير ، مع
 من يذهب من الناس الجبايع ، ليعود الى اهله بما يقوم باودهم ، ولكن الفتى كان
 يرجع صفر البدين ، لا طعام ولا ادم ، فكانت امه تتلقاه بالصرع وتأخذ
 بالشد ، كان الفتى يقف امام باب الامير ، لسمع معبد وهو يقف ، ويظل مصغياً
 حتى ينصرف الناس ، فاذا عاد الى مأواه ، عاد وهو يردد ما سمعه من انغام
 والحن . ويظهر ان وقوفه المتواصل امام باب الامير ، لعت نظر حمزة بن
 الزبير اليه ، فاستدعاه وسأله عن قصته ، فروى الفتى للامير حكايته ، وقال :
 لقد لظمت دارك لا انا بل الباب ، لاشف مسامعي بذلك الصوت الذي اعجبني
 ورقتي ، فسأل الامير الفتى ، ما اذا كان يعرف شيئاً من الغناء الذي سمعه ،
 فأجاب : اعرف اللحن ولا اعرف الشعر . وجلب الامير المعنى معبد ، وامره
 بالغناء امام الفتى الصغير ، فعنى ، بما كان من الفتى الا ان اعاد على مسامع
 الامير غناء معبد ، واعاده نعمة من غير شعر .

ومنذ هذا اليوم ، دخل مالك في عداد اولئك الذين شملهم الامير برعايته ،

اذ عهد الى معبد ، بتعليم مالك اصول الفناء .

وروي الاصح في ان ابن ابي عتيق ، رأى خلق ابن عائشة مخدشاً ، فقال
من فعل هذا بك ؟ قال فلان ، فخصي ونزع ثيابه وجلس لرجل على بابه ، فلما
خرج ، احد تلايبيه ، وحمل يضربه ضرباً شديداً . والرجل يقول مالك نصرني ؟
اي شي صنعتم ؟ وهو لا يجيبه حتى يسع منه ، ثم خلاه ، وافل على مسن حضر
فقل . هذا اراد ان يكسر مرايم دود ، شد على ابن عائشة فحقه وخدش حلقه .
وسن الي عتيق هو عند ابيه بن محمد ابن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق .
ولم يقف الامر بهذه الاستقرائية ، عند حد عزيز الحركة الفنية ورعاية
رجالها ، بل ان اهمتها تعدت هذه الرعاية وجاورت ذاك التعزيز ، فقد كان على
هذه الاستقرائية ان تعمل جاهدة لانقاذ اطريين والمطربات والمعنيين والمفنيات ،
من الولاة المتزمتين ، ومن يحص هؤلاء الولاة من رجال السلطة الروحية على
الفن وارباب الفن ، فقد كان من الصعب العبور على الاستقرائية الجبارية ،
مهاجمة رجال السلطة الروحية بصورة مكشوفة ، ذلك لان وجود تلك
الاستقرائية مرهون بوجود هذه السلطة ، وكل واحد من الاثنين منبئة للآخرى ،
بحيث انهما يؤلمان كلاهما . هذا في شكيب محتجب ، فكانت الاستقرائية
الجبازية ، لتذرع بوسائل منبئة لانقاذ الفن والعابدين ، من الولاة المتزمتين ومن
يؤيد الولاة المتزمتين ، كانت الاستقرائية الجبازية تدافع عن الفن ، لانه الغزاء الوحيد
الذي بقي له في هذه الدنيا ، ولا اله الا هو الوحيد الذي تملأ خواء حياتنا ، فهي تخرص
عنه لانه الشي الوحيد الذي بقي له ، بعد ان فقدت كل سلطان سياسي ، فهي لم تؤخذ بسباب
الزهد والتقص ، لتتسى مرارة الحرمان في صراعة متوسلة ، وانما القت بنفسها في
خضم الوجود ، لتتسى هذا الحرمان ، فهي تطوي الايام والاعوام في حلم واقعي ،
تعيشه وتحياه ، اما السلطة الروحية ، فقد تهاضت الفن والمعنابين ، لاه توجهت بنظرها
الى السماء ، فهي تجتوي الحياة وكل ما يغري ويفوق في هذه الحياة ، وهي لم تنق
بعضها في خضم الوجود ، لتتسى مرارة الحرمان ، بعد ان نقصت يدها من الارض ،
بن استقامت الى حلم عبي ، ووجدت في هذا الحلم ، ملاذها الامين ، انما استعاضت
عن مشاعر بمشاعر ، وبالرغم من هذا الصدوف عن الحياة الدنيا ، فقد كانت هذه
السلطة الروحية ، تتمتع بسلطان مباشر وغير مباشر ، في المجتمع الذي تعيش بين

ظهرانيه ، الامر الذي جعل الارستقراطية الحريصة على الاحتفاظ بمكانتها لدى المجتمع الذي تعيش فيه ، على عدم مجازمتها ، فجا اذا تصدت للفن والعنايب ، فقد حطرت والى المدينة (عثمان بن حبان المري) على المغنيت الاقامة في المدينة ، فصبت الارستقراطية وأضطربت ، وعز عليها اس تقهر مدينتها من ويحجن بصره ، كانت على تلك الأرجاء القاحلة الجرداء ، وما كانت في مقدور هذه الارستقراطية ان ترفع عقبيتهم بالشكوى ، لان الوالي المعزز بأرادة رجال السلطة الروحية ، هو من القوة بمكان . ماذا تصنع ؟ ماذا تعمل ؟

ذهب ابن ابي عتيق الى الوالي ومعه المصربة سلامة القس ، ووقفت المطربة بين يدي الوالي ، فأثنت عليه وعلى آتائه واحداه ، ورنلت ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، فلما سمع الوالي الترتيل افتقر ثمره واشرفت اساريه ، فاعز ابن ابي عتيق الى المطربة ، ان تحدد ، فحدثت ولما تسامى صوته الحنون الى ادي الوالي زحف اليها وطلب منها الرقادة ، وهكذا استطاع ابن ابي عتيق ان يصرف الوالي مما هو في سبيله . وكما تعرضت سلامة القس ورميلات سلامة القس للنمى ، فكذلك كان شأن الفنان سعيد بن مسجع ، فقد نكح احصام العن والعنايب ضد هذا الرجل وشكوه الى والي مكة ، مما كان من الوالي الا ان كتب الى الخليفة في دمشق يعلمه خبر هذا العبد الاسود الذي فنى الناس ، فامر الخليفة الوالي بمصادرة اموال سعيد بن مسجع ، وتسييره اليه ، فاصطحق الفنان الى دمشق ليقتال الخليفة ، وانى له سبيل الوصول اليه ؟ وثافت الفنان ذات البسبب وذات الشمال ، فلم يجد امامه الا الطبقة الارستقراطية ، فذلف اليها وروى ما حكايته ، فغضت الى بجدته ومهدت له طريق المثل امام عبد الملك بن مروان ، ولما عي الفنان ، طرب الخليفة ، وعف عنه وامر والي مكة باعادة امواله اليه . هكذا كان موقف الارستقراطية في العصر الاموي من الفن والعنايب . عنى رجل في المسجد الحرام وهو مستأق على قفاه صوتا ، ورجل من قريش يصلي في جواره ، فسمعه خدام المسجد ، فقالوا : يا عدو الله تنمى في المسجد الحرام ؟ ا ورمعه الى صاحب الشرطة ، فتجور القرشي في صلاته ثم سلم واتبعه فقال لصاحب الشرطة : كذبوا عليك اطلعك الله ، انه كان يقرأ ، فقال يا فاساق اتأتوني برجل يقرأ القرآن وتزعمون انه عسى ، حلوا سبيله فاحلوه . وقال القرشي لرجل :

- والله لولا انك احسنت واجدت ما شهدت لك ، اذهب راشدا .

وكما وجد الغناء العربي لدى الارستقراطية الحضرية ، مؤثلا ومعينا ، فكذلك كان يصيبه من حلفاء الدولة الاموية ، فقد كانت هؤلاء الحلفاء ، حياتهم الخاصة ، تلك الحياة التي استدعها تطور العرب ، فقد دخلوا في هذا العصر ، مرحلة جديدة من مراحل التدرج ، كانوا سادة ، يتمتعون بسلطان سياسي واجتماعي واقتصادي ، لم يظفروا مثله في حقبة من الحقب ، وليس في الامكان الاحتفاظ بهذا السلطان ، اذا لم يتمش " الحلفاء الامويون مع سير الحضارة التي طرقتوا بابها ودخلوا الى معاقلها ، كان الحكم في العهد الراشدي ، حكم جمهوريا ، اما الان ، فان الحكم ملكي ، تقوم حاضرتي ، الى جوار محكمة عريقة في القدم اصيله في المدة ، وسلطته تبسط يدها على رقاع ساهمت بقسط وافر ، في بناء الحضارة الانسانية . فليس من المنطق في شيء ، ان يبقى الحكم الاموي ، محتفظا بطابع البساطة والسذاجة ، كما انه ليس من المنطق في شيء ، ان يبقى متمسكا بديمقراطية بدئية - استدعتها طبيعة الصحراء ، ومن هنا كان التحول الذي طرأ على طراز الحكم الاموي ، في الشكل والمحتوى ، فحوالا طبيعيا ، بعد ان توفرت له المادة الأولية الصرورية ، ولعل ابرز مظاهر هذا التحول هو هذا التحدد الذي شمل الغناء العربي في هذا العصر ، اذ لا شيء اظهر من الفن في تبيان الحركات العاصلة في تاريخ الشعوب ، فالفنان العربي لم يعد يجد في احدية الحادي ، ما يتعاطب مع طبيعة العصر الذي يعيش بين ظهرائه ، ان الذين يجدون على الفن لا يقيمون في الحيام ، بل في القصور ، حتى ذاك الاعرابي ، الذي عاش في المدور والواحات ، تعرف خلال رواحاته وغدوانه ، الى انغام جديدة ، الامر الذي حمل معظم الغائبين على ارتداد فارس والشام ، لتعلم اصول الغناء وقواعده ، وليهبوا الغناء العربي ، اشياء جديدة ، تتفق مع حياة العربي الجديدة ، فقد ذهب ابن محرز ، الى فارس وتعلم الحان المرس واخذ غنائهم ، ثم صار الى الشام ، وتعلم الحان الشام واخذ غناء اهل الشام ، حتى اذا آب الى الحجاز استقط ما لا يستحسن من غناء الفريقين واخذ المحاسن ، مزج بعضها ببعض ، والى منها الاغاني التي صنعها في اشعار العرب ، فاني بالمسمع مثله ، واخذ المريض من رهبان الديرية (فوضع على مثل ما سمعه لنا) وما يقال عن هذين الفنانين ، يقال عن غيرهما من فنانين ذلك العصر الذين ادركوا ما طرأ على عصرهم من تطور ، فصاعوا تحفهم الفنية

وفاق ما آل اليه عصرهم ، وانتهت اليه حياتهم ، اما خلفاء الدولة الاموية ، فقد
 ابدوا هذا التطور وعزروه ، استمعوا الى اعاني عبدالله بن سريج ، وسائب خاثر ،
 وابن مسجع ، ومعبد ، والفريص ، وحيلة ، وسلامة القس ، وعزة الميلاء ،
 فوجد المغنّون والمغنيات ، حذب من الخلفاء على القاصي وعطف على الابدع ، كان
 الخلفاء يأتون عن المطربين ويحصرّون محاسنهم ، ويطلبون من الولاة اشخاصهم
 اليهم ، فقد سأل الخليفة معاوية بن ابي سفيان ، عن سائب خاثر ، حينما ام عبدالله بن
 جعفر دمشق ، وقبل ان معاوية قصي ليلة على راب ابنه يزيد ، يستمع الى غناء سائب
 خاثر ، ولم يشأ الدخول عليه لئلا يقال ان الخليفة عشي محاسن الغنّيان ، اما يزيد فقد
 قال عه المسعودي (وفي ايامه طهر الغناء بكه والمدينة واستعملت الملاهي واظهر
 الناس شرب الشراب) وحدثنا صاحب الاعاني عن عمر بن عبد العزيز قال : (كان
 من غنى من الخلفاء ونسبت له اصوات جمعة ، منهم عمر بن عبد العزيز ، قد نسبت له
 اصوات ، ومنهم من انكر ذلك ، ولعل ما نقل عنه ، كان منه قبل الخلافة ، وكان
 رحمه الله من احسن الناس صوتا) وجاء في مروج الذهب ، ان الخليفة عمر بن عبد
 العزيز ، صرف احد قصاة مكة عن عمله ، لان الطرب استرقه ، فلما غنت جارية
 القاضي بين يدي الخليفة ، طرب واقبل يستمده . ، ثم امر القاضي بالعودة الى
 بلده راشداً ، واما سليمان بن عبد الملك فقد نهى المغنّين والمطربين ، ولكن هذا
 لم يجل بينه وبين استدعاء المعساة والدلال ، سرآ من المدينة الى دمشق ، ليستمع الى
 غنائه . حج هشام بن عبد الملك ، عوقف له حين ومعه عوده ورامره ، فسأل هشام
 عنه ، فقبل له : هذا حنين ، فأمر به بعمل في حمل على حمل وعديده رامره ، وسير
 به امامه وهو يغني ، وقدم يزيد بن عبد الملك مكة ، فبعث الى الفريص ، فجاءه
 وغنى بين يديه ، وانصرف يزيد الى الغناء ، حتى شغل عن شؤون الخلافة ، اما الوليد
 ابن يزيد فقد حمل المغنّين من البلدان اليه ، وجالس الملهين وظهر الشرب والملاهي
 والعزف وغلبت عليه شهوة الغناء في ايامه ، الى جانب هذا الموقف يقفه الخلفاء
 من الغناء ، فقد كان هناك فريق من رجال الدين ، يميّز سماع الغناء والاصعاء اليه .
 كان الحسن البصري يرى ان الغناء (نعم العون في طاعة الله تعالى ، يصلح رحمة
 وبواسي به صديقه) اما عطاء من رباح ، فقد سئل مرة ، عن قراءة القرآن على
 الحان الغناء والحداء ، فاجاب : وما ناس ذلك ؟ وتروى عن عطاء بن رباح قصة

مفادها ، انه لقي مرة عبداً من سريح ، فابيه وعنفه ، ودعاه الى الكف عن الغناء ، فما كان من ابن سريح الا ان قال له . الا سمعت مبي شيئا من الشعر؟ فان سمعت منكراً ، امرني بالامساك عما انا عليه واذا اقسم بحق النية ، ان امرني بعد استماعك مني بالامساك عما انا فيه (لا فعلين) وغى ابن سريح وسمع عطاه بن رباح ، حتى اذا انتهى ، اضطرب عطاه اضطراباً شديداً ، فحلف الا يكلم احداً بقية يومه الا بهذا الشعر ، ولم يعاود ابن سريح بعدها ولم يعرض له : وحكي ان الاوقص الحروي لما ولي مكة ، مربيه وهو نائم سكران ، يمي وبلعن في عنائه ، فاشرف المنزومي عليه ، وقال له : شربت حراماً ، وابتقت ياماً ، وغنيت خطأ خذني ، واصلحه عليه .

وقد كان لهذا كله ، اثره البعيد في تقدم الغناء واردهاره ، اذ وجد الفن خلال العصر الاموي ، الاصدار الدين يؤيدون حركته وبيادكون خطوته وبالرغم من الاصطدام الذي كان يلقاه بين الفينة والفينة . ولا ريب ان هذه الصخرة يلقاها الفن الغنائي في العصر الاموي ، من رجال الحكم وغير رجال الحكم ، كانت ظاهرة طبيعية لتطور عقلية العرب ونميتهم خلال هذا العصر ، فقد فرض هذا التطور وجوده ، تحت تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي امت بالعلم العربي ، فتحدد تصور وتصوير هذا العالم ، لقيم والمثل والمفاهيم ، الامر الذي ادى الى بشرة من حديد ، يتحاوب مع هذه المفاهيم والمثل والقيم . وهكذا اتسم الغناء في العصر الاموي بسمو النجد ، التحدد الذي صار يتوذة ولين ، دون ما عنف ودون ما شدة ، ذلك لان هذا التحدد ، كان يتماشى مع طبيعة العصر من ناحية وينطلق دون ان يجد في طريقه كلاسيكية غنائية محفظة من ناحية اخرى .

جميلة

وقفت مولاة جميلة ، في صحن الدار ، ترهف السمع الى صوت زخيم حنون ، يتعالى برفقة وعدوبة ، في الاجواء الرحيبة ، واللبن ساكن حالم ، لا نامة ولا حركة ، وفي صمت تساءلت : ايمكن ان يكون ذلك ؟ وهل في مقدور تلك الطمعة ، ان ترجع مثل هذا الانعام الحلوة ؟ واستوفت الخطي الى مصدر الصوت ، الى حيث تجلس جميلة في ظل نخلة واردة ، وراحت تنمّل تلك مخلوقة الملائكة في احضانها المهنعة ، ولما حطت خطوة الى الامام ، احسّت جميلة بحركة ، ومخيف ثوب ، وعبق ارج ، فامسكت عن الغناء ، امسكت ، وفي الطمعة نعم حبس ، ولكن السيدة التي هزتها شوة الطرب ، عز عليها ان يسكت هذا السبل الوحشي ، الذي امرد بنفسه لبغى ، في تلك المعارة من نور القمر العصي ، فامرت السيدة جاريها بالغناء ، ولكن الجارية اعتذرت ، اد خشيت عفى ما فعلت ، خشيت ان يعود عليها هذا الصوت الجميل بنتائج غير مستحبة ، كم هي في غنى عنها ، غير ان السيدة املت في الطرب وامررت في السؤال ، لقد كانت تريد التمتع ، بصوت جاريها المملوكة ، التي ما كانت تنظر اليها قبل حقنة قصيرة الابد ، الا صيرتها الى سلع من سلع لبث ، تتصرف بها كيفما شاءت ، وتلازم مقدراتها كغيرها ارادت . وحبال هذا الارراف في الطلب والاحاح في السؤال ، لم يجد جميلة مدوحة من العناء ، فعنت ، واقبل اهل الدار على الصوت ، يسمعون جميلة مولانهم ، نعني فنهز الشاعر وتثير الحواطر ، وضاعت جميلة في المعن ، لم تعد تلك المخلوقة التي تدب فوق الارض ، بل نغمة متموجة مترافضة ، تسبح في عالم من رؤى عذسية ، واشرفت روحها ، ففاضت على كل شيء ، فاد بالوحدة يتألق هذا العيص ، واد بكل ما حوسا في المجداب وعيبوبة ، ولما امسكت ، كن السكون يدين على الاجراء بطريقة المنضوعة بشدا الصوت . ومنذ هذا اليوم ، عرف الناس جميلة ، عرفوا هذا الانسان الذي

وهب حياته للفن ، وكان الفن عراده الوحيد في عالم لا يمر لمن كان على شاكلتها ،
حق التمتع بحرية الحياة . فقد كانت جميلة مولاة ، مثل سائر الموالى ، ولكنها
مخلوقة يجيش كيانها بالطبوية ، كانت مخلوقة تحس بوجودها ، وكان هذا الاحساس ،
يقوى ويشند ، كما تراكم محزون ذلك القبح الجبوي ، وما كان في مقدوره ، ان
تجد له مخرجا ، ترفه به عن نفسها المثقلة بمرارة الحرمان ، فكان كلما تضاعف هذا
المتراكم من الاحساس ، كلما تدفقت مشاعرها وتعمرت عواطفها . انها امرأة جميلة
ومن حقها ان تتمتع بما حبتها به الطبيعة من معاني ، ولكن الحيل لا نصيب له الا
الالم ، فلما استمعت الى العنان صائب حزن الذي كان يقيم في جوار منزل مولانا ،
وجدت في ابعام هذا العنان ، صدى لما يضطرب في قلبها ، فرددت ما سمعته في
في خلواتها ، وفيما تمخض من افئفائها ، رددت اللحن ، اذ وجدت فيه مدى لشعورها
الحبيس ، واحساسها الكظيم ، فربما كان اللحن مجرد نغمة ، مجرد معزوفة ، تحفظ وترجع ،
وانما كانت صرخة روح ، صرخة تتعالى في صمت وسكون ، صرخة تعبر فيها عن
المشاعر التي ما كان في مقدور اسنانة مثلها ، ان تعبر عنه في عصر نظير عصرها .
وهكذا وجدت جميلة في الفن الاداة التي تصور الالم الذي يساورها ، الم اسنان
محروم من التمتع بحرية الحياة ، تمتع كل كائن حي في حياته ، وكما املى عليها شعور
الحرمان ، ذلك الطابع الحزين ، كذلك اوحى لها هذا الشعور ، الانطلاق من
القيود المألوفة ، فهي حزينة في الحاحها المصعدة في حين ، وعابثة في حين آخر ، انها
حزينة اذ تصور حياتها ، وعابثة اذ تفكر بما تشتمل عليه هذه الحياة ، ولم تلق
جميلة من مولانا تقريبا على مر اولتها الفاء وعكوفها عليه ، فقد كانت هذه المولاة ،
تأمل ان تفيد من جميلة ، فيما اذا بيعت ، كانت تأمل ان تبعها بثمن اوهى من
الشن الذي يؤدى له ، فيما اذا كانت مولاة عادية ، فشجعت جميلة وحضتها على العناء ،
وجعلت من بيتها ، منارة للعنانة الباشقة ، تريق الصبيح هناك ، لتسير سبيل اولئك
الذين ينفعون عن سعة في اقتناء الجواوي المعينات ، وكانت جميلة ، شأن كل امرأة
مرهفة الحس ، تتألم من عرصها على الناس عرض السلع ، ولكنها كانت تجد فيما هي في
سبيله ، طريق الخلاص ، طريق محروها الهائي من رق العبودية ، ولما اروت الساعة ،
كانت جميلة سيدة بيتها المطلقة ، كانت سيدة بيتها ، لانها استطاعت ان تفسى لنفسها

ماوى يخف اليه مروات الناس ، تحي السهرات وتقيم الحفلات ، تدعو هذا ، وترحب بذاك ، بلى صارت جملة عبدة بيتها ، الأمرة الناهية فيه ، ولكها لم تصر سيده نفسها ، كانت حياتها التي وقعتها على الفن ، ملكا لاولئك الذين ينعمون بمباهج الفن ، للفنهم الشخصية ، لاولئك الذين يريدون منها ان تغني ما يقترحون عليها من غناء لا ما تقترحه هي ، ونحبه ونهواه ونشقي ، لقد سميت جملة « كما يقولون » بالفن الى ذاك الاقايى الارستقراطي الذي يفرضه الوضع الارستقراطي في ذاك الزمن ، ولكن هذا السمو ، كان يمسك رأسه ويسبل جعبه ، امام السادة الذين ينصرفون عن قدرات مجتمع العصر الاموي ، كانت ذبى الذهاب الى دور الناس ، ولكها كانت تنسحب الى دور سادة الناس ، ولم يكن هذا الاياه ، نتيجة طبيعية لكبرياء الفن ، وانما كان نتيجة طبيعية لعقلية الارستقراطية ، هذه العقلية التي لا يمكن لها ان تتصور الحياة ، بدون امتيازات خاصة ، تستع بها دون سائر الناس اجمعين ، لقد كانت الارستقراطية تريد ان تحنكر جملة وفن جملة لوحدها .

* * *

كانت جملة تدرك تمام الادراك ، ما هذه الارستقراطية من اثر في المجتمع الذي تعيش بين طهراية ، فكانت تتقرب اليها وتصلي في محرابها ، كانت تفعل ذلك ، لانها تعتقد بأن هذه الارستقراطية ، ولو ظلت محرومة من كل سلطان سياسي ، ولكها تتمتع بمركز اجتماعي مرموق ، حكم من مرة دافعت عن الفن ، وكمن مرة حالت دون الولاة المتزمتين وعقاب المخدرات والمطربين ، كما ان جملة كانت تدرك حق الادراك ، ان وجودها مرهون بما تجود به عليها هذه الارستقراطية من هبات ، وما تبدله لها من اعطيات ، فكانت تدعو عبد الله بن جعفر واضراب عبد الله بن جعفر ، الى منزلها بعد ان تعد الطعام والشراب ، وتأمر جواريا بالتجمل والتزين والبهجة ، حتى اذا تكامل عقد المجلس ، ابهرت لعماء هي وجواريا ، وربما قامت بنفسها وهي بمسكة بالعود ، تنشي ونعني ، وتنطلق اثرها القيان تفعل فعلها وتلهو لهوها ، وقد ارتدت الثياب المصيفة الراهية الالوان ، واسبلت القنادر ، وقد كانت الارستقراطية الحجازية تبعث في مثل هذا الضرب من العبث ، ما يملأ حياتها الفارغة ، كانت تحب الفن وتنشده ، لالا صورة من صور واقع الانسان الحي ،

ولا لأنه مظهر من مظاهر الابداع الانساني ، ولا لأنه حاجة من حاجات المجتمع ، بل لانه وسيلة من وسائل ترقية اوقات الفراغ ، وأداة من أدوات التعبير عن النزوات والصبوات ، والاهواء والرغبات ، وهكذا وجهت هذه الارستقراطية العاطلة عن العمل ، الفن وجهة تتجاوب مع طبيعة الحياة التي تحياها ، فطبع الفن بطابع هذه الحياة ، ولم يكن العنان لنفسه ، بمقدار ما كان لغيره ، لأولئك الذين يطلعون اليه الغناء ، حتى اذا غنى ، كان عاؤه صدى لمطعمهم ، لا عاطفته الصافية الثقية ، الامر الذي افضى بالعن الى غلبة السطحية عليه ، وما تتطلبه هذه السطحية من تهاويل ، لتخفي وراء الاشكال والالوان ، ريعها ، فعاد العن بذلك عن البساطة ، هذا الشيء الذي كان وما زال سر الجمال ولم يكن في مقدور جميلة ولا غير جميلة من المطربين والمطربات ، ان يقولوا غير ما اراده هم وضع مجتمهم ، كان على العنان او الفنانة ، ان يتأدب بادب الارستقراطية ، بسلوكها وثقافتها ، حتى يظفر بمكانة في المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد استطاعت جميلة هذه الحقوة التي نشأت نشأة الموالى ، ان تخلق نفسها خلقا جديداً ، خلفا يتفق مع حياة البيئة التي وصفت نفسها فيها ، فقد كانت هذه الحقوة امرأة كاملة الاوثة ، لم تنلق العناء كما ينلقاء اولئك الذين يؤمنون بالاھام ، ولا تعلمت نغم التلميد ، وانما انبثق في كيانها انبثاق ينبوع ، فانفجر دفعة واحدة ، وفاض على كل ماحوله ، فكسبت كما قالت لمواليها ما لم يحظر لهم على بال وحظيت بمرکز ما كان يدور بخلفها انها مستعظى بثله ، فقد زودت هذه المرأة نفسها بثقافة عصرها ، حفظت احبار العرب واشعارهم ، وسير العشاق واخبارهم ، فغف اليها الشعراء والمفنون ، يسألونها وأجبا في شعرهم وغنائهم ، فكانت تصدر حكمها على هؤلاء وهؤلاء دون ما تحيز ودون ما ابشار ، فكان عمر بن ابي ربيعة والاحوص والعرجي ، وغيرهم من شعراء ذاك العصر ، يقصدون بيتهم لحضور مجلسها ، فكانت تعني شعرهم ، وتذني بوجهة نظرها فيما ينظمون كما كان ابن سريج والفريض وابن مسجح وابن محرز ، يشغفون اليها ليعموا بين يديهم حتى اذا ما انتهوا قالت لهم :

كلکم محسن وکلکم مجید فی غنائہ ، اما انت یا ابن سريج فتصعک الشکلی محسن صونک ومشاکلته للنفس وبرقة هائک وامتزاجه بالارواح ، واما انت يا معبد

فنتسبح وحدك بجودة ألبعك وحسن بطمك مع عذوبة غنائك ، وأما انت يا ابن مسجع ، فلك أولية هذا الامر وأصليته ، وأما انت يا ابن عائشة ، فمع الخلفاء نصلح ؛ وأما انت يا ابن محرز ، فلو قدّمت احدا على نفسك ، وأما انت يا غريض ، فلو ابتدأت لقدمتك عليهم .

ولم يجد الفداون غضاة فيما قالت ، فقد كانت حميلة في نظرم ، سيدة الفناء ، قال معبد (اصل الفناء حميلة وفرعه محن ، ولولا حميلة لم تكن نحن مقنين) ، لقد كانت حميلة اصل العناء في نظر معبد وغير معبد ، وهي المرأة العصاة التي انشأت نفسها بنفسها ، واستطاعت ان تفرص وجودها على المجتمع الذي كانت تعيش فيه ، اذ طفرت هذه الفئاة ، بمكانة اجتماعية لم تظفر بمثلا امرأة على شاكلتها ، عزمت على الحج ذات مرة ، فسار في موكبها رجالات المدينة ، وقدر عدم اليقين اللوائي وافقن هذا الموكب بخسعين قينة ، ولما وصلت حميلة الى مشارف مكة ، خف سروات الناس لاستقبالها والحقاوة بها ، حتى اذا قضت مناسك الحج ، وبغت وجهها شطر المدينة ، اطلقت معها طائفة كبيرة من سادة مكة ، لتسير في موكب الفن الى المدينة ، حيث تتألق انواره ، وتنبق ازهاره ، ولما وصلت (خرج الرجال والنساء ، هوقفوا على ابواب دورهم يبطرون الى جهاما والى القادمين معها) هكذا استقبلت حميلة ، لم تكن المدينة في ذاك الزمن ، حاضرة الخلافة ولا قاعدة الملك ، كانت المدينة ، هيكل الفن ، ولم يكن لهذا الهيكل من نصب ، الا حميلة ، وهامي ذي عذارى هذا الهيكل تصق بجانبها في العشاء الرحب ، وتمضي ، وتمضي ، لتخلق فوق ذاك الرمز الحلي للفن في اشراقه الابدي .

معبد

إذا أقبل الليل ونامت العيون وثأقلت النجوم في الأفق الرحب تعالى في
الاجواء صوت شعبي حنون فبدد السكون الشامل واهدوه الكامل وتهاوت السمات
على تلك السمات ، كان هذا الصوت صوت فتى لم يزل في ربيع العمر لا هو بالأسود
القائم ولا بالابيض الناصع . صوت فتى نوسد صخرة من صخور ظهر الحرة وقد
هجمت امامه فطعن العم واستسلمت الى غفوة هينة في تلك الليلة المشرقة المتسوجة
الظلال ولم يكن هذا الفتى المديد القامة يجهل اثر صوته الطري الندي في النفوس .
كان يعلم انه اوتي شيئاً جسيماً في هذه الحياة الدنيا وان الموهبة التي حبته اياها الطبيعة
هي من الاهمية بمكان ، هي ثروة وما عليه الا تعهد هذه الثروة بالعناية لتزهر وتتشع
فتحرر من عبودية الرق وبذلك يحقق وجوده ويبدعه . ومنذ اليوم الذي حاورته
فيه هذه الفكرة شرع يارتد اما كن العماء يجتلس الخطى الى بيت جميلة او سائب
خاثر او نشيط ، فيصفي الى الحان هذا واعاني ذلك ، حتى ظفر بقسط غير يسير مما
يصبو اليه من اغان والحان اذن عودته فيما هو في سبيله ، وراح معبد يردد ما يحفظه
في اطراف المدينة في ظلال النخيل حيث لا رقيب ولا حسيب ، ويظهر ان موهبه
الصوت كانت من الروعة بحيث انها استبقت بسرعة غير متوقعة ففي الوقت الذي
كان معبد يجمل فيه مدى عبقرية الفنية ، كان هناك من يدرك اثرها في النفوس ، وكان
ابن مريع والغريز اول من لاحظ هذا الشيء الذي لم يتوصل اليه معبد نفسه
فقد اتفق لهذين المطربين ان رحلا الى المدينة (لتعرف بمعروف اهلها) ولما
وصلا الى اطرافها كان معبد في ساءة من تلك الساعات الالهية ساعات التملبي
والنحيب حيث هو في غيبوبة ينثر حيناً اتفق احمل الحان ، واصفي ابن مريع
والغريز الى هذا الصوت الصافي الرنان ثم نظر الواحد منها الى الآخر وقد
قلقتها الدهشة وساورتها الخيرة . لقد اقبلا الى المدينة ليتكسبا بالغناء اذ كان كل

واحد منها يظن انه لن يجد في بثرب ندا ولن يلقي نظيراً وها هو ذا الآن امام
علام يرسل صوته العصي فيسي ويقوي فالتفت ابن سريج الى صاحبه العريض وقال :
- هل سمعت كاليوم ؟

- لا والله

- ما وأيك ؟

وكان الجواب ان رجع الاثنان من حيث اقبلا وكرت الايام فاذا بابن سريج
يعود ثانية الى المدينة يصعبه ابن ابي العتيق ولكن اسم معبد لم يعد نكرة ، لم يعد
معبد يعني في هدأة الليل امام قطيع العنم ولا في وضع النهار في حلال النخيل بل
في مجالس القوم العنائية ولما سمعه ابن سريج قال له ابن ابي العتيق :
- ما تقول ؟

- ان عاش هذا العلام كان معي بلاده .

وحقت نبؤة ابن سريج فقد أصبح معبد مغني بلاده وعلماً من اعلام الغناء
العربي اذ أجمع المطربون في عصره على تعرفه عليهم بالغناء . كان المغني مالك اذا سئل
انت احسن غناء ام معبد ؟ اجاب : والله ما بلغت شراكة قط ، وكان ابن عائشة
اذا مدح في مجلس ما قال :

لقد اخذت عن معبد . وذهب اسحق الموصلي الى القول (معبد احسن الناس
غناء واجودهم صنعة واحسنهم خلفاً وهو امام اهل المدينة في الغناء) اما الكتّاب
الادبية فقد وصفته (لقد كانت له صنعة لم يسبقه اليها من تقدم ولا زاء فيه من تأخر)
ولكن هذا الفنان العظيم الذي احرز مثل هذه المكانة الفنية ما لبث ان مني في
آخر ايام حياته بنكية لم يمن بمثلها غيره من الفنانين فقد فقد موهبته الصوتية هذه
الموهبة التي هي كل شيء بالنسبة له ، هي حياته وما ملكت يمينه .

لقد كان الغناء لمعبد اكثر من حرفة يمارسها ليظهر بقوت يومه . كان الغناء مادة
وجوده وقوام حياته وكما قال سبينورا (اعيش لافكر) فكذلك كان شأن معبد
يعيش ليغني فكان معبد مثل الببل يفره ويشدو لان الشدو والغناء طبيعتان أصيلتان
فيه فهو اذ يعبر عن مشاعره في الاطنان اغا يرمز بذلك الى وجوده ، الى حقيقته الحية
ولما مني بخسارة صوته شعر معبد بان وجوده لم تعد له حقيقة وان العالم الذي كان

رجع صدى لما يجيش في صدره ويضطرب في قلبه قد استحال الى جاد ابعكم اهم
فالفردان المتوفرة والظلال المتحركة والارض والسماء وكل شيء بنصت له قد آل
الى فراغ رهيب وضاعف من حزنه تلك البسة الساخرة الصفراء التي كانت تلوب
على شعاه اولئك الفتيان الذين لم يفهم الحظ لجماعه في زهوة شبابه . كان هؤلاء
الفتيان يسفرون منه ويعشون به ادا ما غنى . كانوا يفعلون ذلك غير آبهين بمواظفه
الحساسة ومشاعره المرهقة ومع ذلك فقد كان معبد (يحمل ويمتنع) مثل ذاك
الروائي القديم ، مثل ذئب دومي .

* * *

ترامت شهرة معبد ، حتى عمت ارض الحجاز ، فراح المغنون والمغنيات ،
يتوافدون عليه ، ليأخذوا عنه ويقنسوا منه ، فقد كان معبد في نظر ابناء جيله ،
معلم كبيراً (لم يكن فيمن في احد اعظم بالعلماء منه) اخذ عنه حكم الوادي
واضراب حكم الوادي ، كما اخذت عنه سلامة القس وامثال سلامة القس ،
وانتشر تلاميذه وتميذانه في الآفاق يرددون احده ويديعون انغامه ، حتى وصل
اسمه الى سامع الخليفة الوليد بن يزيد ، فاستدعاه الى دمشق ، ليعلم جواربه الغناء ،
ويذهب معبد الى حاضرة الاسلام ، فيستقبل بالقصر الملكي ، استقبلاً رائعاً حادلاً ،
وصفه صاحب الاغاني بقوله :

لما بلغ الوليد قدوم معبد ، امر بركة بن يدي بحمله ، فملت ماء وروه خبط
بمسك وزعفران ، ثم مرش للوليد في داخل البيت على حافة البركة ، وبسط لمعبد
مقابلة على حافة البركة ، ليس معها ثالث ، وجهي معبد فرأى ستراً مريضاً ، ومجلس
رجل واحد ، فقال له الحجاب : يا معبد سلم على امير المؤمنين واحلس في هذا
الموضع ، فلم ، فرد عليه الوليد السلام من خلف الستور ثم قال له : جياك الله
يا معبد ، اتدري لم وجهت اليك ؟

قال : الله اعلم ، وامير المؤمنين .

قال : ذكرتك ، فاحببت ان اسمع منك .

قال معبد : أناغني ما حصر ام ما يقترحه امير المؤمنين ؟

قال بل غني :

ما زال يعدو عليهم ريب درهم حتى تفانوا ورب الدهر عدا
 ابكي فراقهم عبي وارقبها ان التفرق للاجباب بكاء
 ففناه ، فما فرغ منه ، حتى رفع الجوارى السجف ، ثم خرج الوليد فالتقى نفسه
 في البركة فغاص فيها ، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بشباب غير الثياب الاولى ،
 ثم شرب وسقى معبداً ثم قال له غني يا معبد :

يا ربع مالك لا نجيب متياً فدع عاك فحوك زائراً ومسلماً
 جادتك كل سحابة هطالة حتى ترى عن زهرة متبساً
 لو كنت تدري من دعك اجبت وبكبت من حرق عليه اذا دما

قال : ففناه ، واقبل الجوارى فرفضنا السر ، وخرج الوليد فالتقى نفسه في
 البركة فغاص فيها ثم خرج ، فجلس ثياباً غير تلك ، ثم شرب وسقى معبداً ، ثم قال
 له غني ، فقال : ماذا ؟ قال : غني :

عجبت لما رأته اندب الربيع النحيل
 واقفاً في الدار اكبي لا ارى الا الطول
 كيف نبكي لافس لا يكون الذميل ؟
 كلما قلت اطمنت دارم قالوا : الرحيل

قال : فلما عاء رمى نفسه في البركة ، ثم خرج فردوا عليه ثيابه ، ثم شرب
 وسقى معبداً . وقال يا غلام ، احمل الى معبد عشرة آلاف دينار ، تحصل له في بلده ،
 والفي دينار لسعة طريقه ، فحملت اليه كلها وحمل على البريد من وقته الى المدينة .

ولكن هذه الحماوة البالغة التي حظي بها الفنان ، لم تكن لتزيده الا تواضعا ،
 فقد كان معبد يؤمن بعقريته الغنية ، كما كان يؤمن في نفس الوقت ، بمدى الفن
 الامتناهي ، فانطلق ينهل من ينبوع الفن ، لا تشبه ابحاده ولا تقدر به شهرته ،
 انطلق الى مكة ليصنع من المعين ويتمرف اليهم ، ولما وصل المدينة سأل عن
 مكانهم ، فقبل له بقية ما كان فاضى الى حيث يجتمعون ، وطرق منزل صاحبهم ، وقال
 له : انا رجل اشبهي الغناء ، وارعم اني اعرف منة شيئا ، وقد بلغني ان القوم
 يجتمعون عندك ، وقد احببت ان تزرتني في جانب منزلك وتحلطني بهم ، وانه
 لا مؤونة عليك ولا عليهم مني ، قال الاصفهاني : فلوى صاحب البيت شيئا ، ثم قال :

أنزل على بركة الله . قال : فقلت متاعى أنزلت في جاب حجرتي ، ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد ، حتى اجتمعوا فسكروني وقالوا : من هذا الرجل ؟ قال : رجل من أهل المدينة خفيف يشتهي العناء ويضطرب عليه ، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه ، فرحبوا بي وكلمتهم ، ثم بسطوا وشربوا وغنوا ، فجعلت أعجب بعنائهم وأظهر ذلك لهم ، ويعجبهم ممي حتى أمنا أياما ، وأخذت من غنائهم وهم لا يدرون ، أصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لآل مريج : فديتك ، أمسك علي صوتك :

قل لنفسك وترها قبل شعث النوى غداً

قال : أو تحسن شيئاً ؟ قلت تنظر وعسى أن اصنع شيئاً ، فإدعوت به ، فغنيته ، فصاح وصاحوا : وقالوا . احسنت والله .

وأقام معي عندهم شهراً أحذ منهم وأحدوا منه ، ثم انصرف إلى المدينة ، ولم تكن قبيحاً غير قرية من القرى المتاحة لمكة ، فيها ماء وبخيل ، يؤمها المفضون فيقتضون في ظلها المورقة البدية ، أهل بحالهم العائبة ، غير أن هذه المجالس لم تكن عامة جعلي بعاشاها كل الناس ، وإنما كانت مقصورة على طبقة معينة ، طبقة الأمراء والسادة ، ومن أوتي حظ من ثروة وصيبا من جاه ، كما كانت مقصورة على دور المطربين والمطربات ، والمعين والمعينات ، فالعربص حيناً أقام في مكة ، كان ابن أبي العتيق وأمثلة بطرقون قصره ، ومعهم الهدايا الثمينة والتعجب الجميلة ، وبقية لذي ما طاب لهم المقام ، يأكلون ويشربون ويعنون ، وجميلة كانت تعد مجالس خاصة للفناء ، يقصدها عبد الله بن جعفر وأبداً عبد الله بن جعفر ، وكان لها جوارها - جوقتها الموسيقية الخاصة - اللائي علمتهن ودربتهن ، فإذا ما طرقت بينها طارق ، أعدت مجلساً غائباً من أروع المجالس ، ترتدي الجوارى الملابس المصبغة ، بعد أن تنعطر وتنطيب ، وتضع على رأسها شمرأ مستعاراً ، وتقوم وهي بمسكة بالعود ، تمشي وتغني ، والجوارى تفعل فعلها ، والمجلس يروح بالطيب ويعبق بالند ، وقد يحصر مجلس جملة المعنون والمطربون ، فتأخذ الجوارى بالأعواد ، فتقول لكل فنان : هات ما عندك ، فيندفع سميد بن مسجع في العناء ، ثم ابن محرز ثم الغريص ثم ابن عائشة ... كل بغني القصيدة التي تطيب له واللحن الذي يختاره ، حتى إذا انتهى دور الفناء الإفرادي ، جاء دور العناء الثنائي ، فيغني نافع وبذيع بصوت

واحد ، ودعا غنى ثلاثة من المطربين معا ، لحا مشتركا ، وكانت حيلة مخرص على ان تكون الاصوات متقاربة في الغناء المشترك ، كأن تعي سلامة وحجابه او قد ورحمة وهبة الله ، فاداعى كل من كان في المجلس ، اطلقت حيلة بعد ذلك في الغناء يعرف معها خمسون جارية .

ولم يكن معبد في معزل عن مجالس حيلة وغير حيلة ، فقد اتفقوا ان غنى معها في مجلس من مجالس العنائية ، غنى وايضا قصيدة للاحوص ، حيث كان يرثل بيتا وحيلة ترثل بيتا آخر .

الى جانب دور الامراء والاثرياء ، ودور المعنين والمعنيات ، فقد كان هالك مجالس عنائية عامة ، كان المفسون يتصدون لحاح بيت الله الحرام ، ويرفعون عقيرتهم بالثناء ، كما فعل الفريض وابن محرر وغيرهما من مطربي ذلك العصر ، ولكن العناية الحقيقية من هذه المجالس العنائية العامة ، ما كانت تهدف الا الى الدعاية ، اذ كان المعنى يحرص على ذهاب اسمه في الآفاق ، ولم يكن هناك افضل من مواسم الحج . اما مجالس الخلفاء ، فقد كانت غاية في الروعة ، كانت تعد حسب هوى الخليفة فالحليفة الحريص على سمعته ، يتعجب الجهر بما هو في حيله ، اذ كان يستدعي المعنى فيما اذا هبط مكة مرارا ليستمع اليه ، ومنذ اليوم الذي تقلد فيه يزيد بن عبد الملك مقاليد الخلافة ، خرج خلفاء امية على التقاليد المتبعة ، اذ اذن كما روت كتب التاريخ للندماء في الكلام والمزل في مجلسه والرد عليه ، بعد ان كان الملوك يقيمون بينهم وبين ندمائهم الاحجية .

عرف معبد هذه المجالس العنائية على مختلف انواعها ومتباين اشكالها ، عرف مجالس الخلفاء الاثرياء والمعنين والمعنيات ، وكان له في كل مجلس من هذه المجالس اثر يذكر ، فادا ماسخر الفتيان الاغرار من قيمته الفنية ، حينما فقد موهبته الصوتية ، فان وسطه العمي لم يسه فقد شبعه خليفة ومكنه عنه قبلة .

سلامة وحبابه

مضت سلامة ، ترفب المدينة الغنية الراقدة ، والقمر يرسل على روده ، انواره
الفضية الاخاذة ، فتغمر الارحاء ونعم الانحاء ، ولتعت ذات اليمين وذات الشمال ،
لتنجلي تلك المعاني العريضة الحلوة ، ومن بعيد ، من هنا وهناك اطلت عليها الدكريات
فاسبلت الجميع على دمعين ، وبعثة جاشت خراطرها وفاضت مشاعرها ، فاندفعت
تغني تلك المعزومة التي طالما رددتها تحت سماء بلدتها المحبوبة ، فهاجت الاجواء
بالاصداء ، واستيقظت المدينة ، على النعم الساحر ، هب النيام ، يعدون وينسأون!
تري ما الذي عري سلامة ؟ هل من خطب ؟ هل من جديد ؟

ولما انتهى المطاف ، الى حيث تقف سلامة ، راحوا يصفون الى اغنية الوداع ،
الى الاغنية الرفيعة اللطيفة الناعمة ، ادرك اهل المدينة ان مطربتهم ازمعت رحيلها
قصيا ، وانما ستمضي دون ما اوبة ، وان تلك اللبالي العذاب التي كانت تحييها ، لن
تتألق ابوارها بعد اليوم ، فمرت عليهم هدي النهاية المؤلة ، التي ما كان يدور مخدوم
انهم سيصلون اليها ، عز عليهم ان تذهب هذه المعنية التي اضفت على مدينتهم السحر
والجمال والرفقة والدلال ، الى بلد بعيد ، دونه المفاوز والمهامم بآخر لحن من الحانها
عادوا الى مدينتهم يرجعون ما غنت ويرددون ما قالت ، عادوا وفي آذانهم دوي
ذاك الصوت الحنون الشجي ، اما سلامة ، فقد ألقت برأسها فوق صدرها ، وراحت
في شبه غيبوبة طويلة مديدة ، تتوالى في خاطرها ، ابامها العابرة ، لوحة لوحة ،
وصعقة صفعة ومن خلال صور هذه الالام ، اطل عليها اولئك الذين نعمت بحبهم
وطابت بعطيمهم ، اطلت عليها صور هؤلاء الاعراء الاحباء ، مستراقصة ترافق
السراب ، متموجة تموج الرؤى ، بدا الاحوص في غرامه المنح ، وابن قيس
الرقيات في غيرته اللاذعة ، وذاك القس العاشق المتيم ، الذي عاف الزهد والنسك
والتقشف ، لينغمي بمعاسنها ويشيد بمآثرها ، ومن بعيد ، من اعماق الماضي ، لاحت

لسلامة هذي الصور المثيرة المعربة ، فراحنا تتساءل في همس :

اتراي اجد في تلك المدينة العظيمة ، نظير القس والاحوص وابن قيس الرقيات ؟

اتحقق القلوب بحبي في الشام كما حققت في الحجار ؟

وهل تنو الي الاطر هناك ، كما رت الي هنا ؟

كانت هذه الاسئلة ترود بحيلة سلامة ، وهي في طريقها الى دمشق ، وكانت كلها ألقت بنظرة على ما حولها ، شعرت بان القافلة تحت الخطي وتعدت السور ، وان البلدة التي احبتها ، بانت بعيدة ، بعيدة جداً ، فتطرق واحدة وقد ساورتها وحشة الية وكآبة حزينة ، كانت لقطة عصي سلامة الى حاضرة الملك ، قصي المعية الى ذاك المسرح المتألق الانوار ، لتلعب دورها عليه ، وما كانت سلامة بالمرأة المتطلعة وانما كانت امرأة طيبة فسوعة ، املاطوبية الروح يستهويها الحب النقي الصافي ، وتجد في غرام القس واضراب القس ، مثل الاعلى للعب المشدود ، المثل الاعلى لاحلام الحب العذري ، الذي نورق به الدنيا ، وتفتتح له الحياة ، وبشرق العالم ، ويظهر الوجود اما الآن فهي تجهل المصير الذي يرقبها ، ان صوت القدر يدفعها الى الامام لتعيش في قصر الخليفة ، بن لحواوي والقبوت ، حيث الایام والليالي في عيد ابدي ، ولكن ما جدوى هذا العبد ، اذا لم يكن عبدها ؟ ان هواها في المدينة وربوع المدينة ، لا في دمشق واهياء دمشق .

هكذا كانت حياة سلامة ، حياة موروثة بن ماضي نصبوا اليه وحاضر لا تحذب عليه ، كانت سلامة تجد نفسها بعيدة كل البعد عن اوسط الذي تعيش بن طهرانيه ، بعيدة عن دنيا الملك ومظاهر الملك ، وكل ما يتصل بتلك الحياة ، الحافلة الزاخرة ، وقد كان هذا الاحساس الذي ساور سلامة ، اثره البعيد في الصلات القدسة بينها وبين يزيد بن عبد الملك ، فقد لاحظ يزيد ، ان سلامة ليست له ، وان شيئاً خفياً يحوس صدرها ، فيجعلها في معزل عنه ومأى منه ، أحس بان هوة قد فغرت فهاها بينها وبينه ، وان الهبات التي اغدقها عيناها واهدايا التي قدمها اليها ، لم تفتح له مغاليق قلب تلك المرأة الجاحدة للعصل الساكرة للنعمة ، ترى ما الذي بضع ؟ ايتروكها وشأنها ؟ ان حبه لها من القوة مكان ، وليس من السهل كما انه ليس من اليسر عليه ، سيان هذا الحب وتفض يده منه ، ان حبا مثل حبه لن يطوى في غياهب السيان ،

إذا لم يستعص عنه محب آخر ، محب يتلاشى فيه ويعنى ، محب يجعل من سلامة ، خطرة عابرة وذكرى عابرة . ولم تكن حياة يزيد بن عبد الملك ، بالحياة القاحلة الجرداء ، حيث لا زهر ولا شعر ، وإنما كانت حادثة بشق الألوان ، وما عليه غير انحدار جفينة ، ليستعرض الصور التي مرت عليه ، كان عليه ان يفعل هذا ، ليعبد المرأة التي تهم القوة ، المرأة التي يستعص بمحبها عن حب سلامة ، ولما طابت نفسه بهذه الفكرة رفع قلباً قليلاً سحب الماضي المسبلة ، قدمت له عرائس اعلامه في حقيقتها الحية ، وحدث غلالة هذه العرائس تعرج شبتاً فشبثاً وتنداح وتنداح ، لتظل مستقرة في حالة الحلم ، صورة واحدة ، صورة حباية ، وبدت حباية ليزيد من اقصى ارجاء تصوراته وهي تطلق عاصفة صاحبة ، خفيفة كالسهم وشيقة كالفراسة تلرب وتندور ، والدف بين يديها يعلو ويهبط ، وتذك القامة الهيفاء والبطرة التبعلاء ، والساق المعنولة العارية .. لقد كان كل شيء في هذه المخلوقة يثير الحواطر ويلهب المشاعر ، وعلى حفيف هذه الصورة الحلوة ، اعنى يزيد ونام .

كان يزيد بن عبد الملك من اولئك الخلفاء الذين وصفوا بالهوى ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى وصفه بالعشق ، فقالوا : كان يزيد بن عبد الملك خليع امية ، شغف بحوريتين قطع معها زمانه ، وهما تكن وجهة نظر المؤرخين ، فالامر الجدير بالملاحظة هو ان يزيد عاش حياته ، كما يجباه اولئك العنيان الذين مهد لهم الوسط الذي درجوا فيه ، افقاً رحباً لزوجاتهم وجواً طليقاً لرغباتهم ، كانت عائكة ام يزيد ، من احب الناس الى عبد الملك ، فكان يصيب يزيد من عطف ابيه او فر من نصيب سائر اخوته ، وكان هذا الحظ اثره في مجرى حياة يزيد اذ جعل منه رجل حريم اكثر منه رجل دولة ، فقد نولى الخلافة وهو في الثلاثين من عمره ، حيوية متدفقة متوثبة ، وسلطة نهامت اليه وهديا افبلت عليه ، لقد عانى مرارة الحرمان ، في ظل حكم اخويه ، الوليد وسليمان وذائق شطط التشبث في ظل عمر بن عبد العزيز ، لقد داق هذا وعاسي ذاك ، وهو المرهف المنعم ، الذي كان يلاقي من حذب والده وحنان امه ، ما لم يلاقى مثله اي اخ من اخوته ، والآن ، الان وقد بسط يده على كل شيء ، ودانت له الرقاب وعت الاعناق ، ماذا عساه يفعل ؟ ايسر على قرار سلفه عمر بن عبد العزيز ، فيعيش حياته في جوع وطناً ؟ ان كل شيء حوله يناهيه ، ويهتف به ويدعوه اليه ، وما كان في وسع رجل نظير يزيد ، ان يقاوم الاغراء

للصاروخ في كبائه ، فقد كانت المرأة تعيش فيه ، في دماثة ، وهو اذ يستجيب الى اغرائها ، انما يستجيب الى طبيعة تاصلت فيه ، اما الجسد فم يكن عند يزيد غاية قائمة بذاتها ، بل كان وسيلة للتنمتع بالمرأة ، فهو لاجل المرأة لا ينودع عن ان يديع الى الولاة بان (يعيدوا الدس الى طبقتهم الاولى ، اخصوا ام احبوا ، احبوا ام كرهوا ، حيوا ام ماتوا) ، وهو لاجل المرأة لا يستكف عن الصدوف بوجهه عن اقوال المتخلصين من اصحابه ، وقريض بعه لتعامل المفرضين من اصحابه ، وهو لاجل المرأة يضحي بكل شيء ، ناسك والسلطان . غت له حباة ذات يوم ، فاهوى ليطير فقالت له يا امير المؤمنين : لنا بك حاجة ، فقال ا والله لا طيرن ، فقالت افعلى من تدع الامة اقل اعليك

ولم تكن حباة بالمرأة التي تقدر المسئوليات ، وتحفل بالنسبات ، كانت امرأة متطلعة متشوقة ، تفشد الرقعة والجاه ، كان صدرها يحور بالرعبات وينضج بالصوبات وفي سبيل ما يضطرب في صدرها ، كانت تصحي بكل شيء ، فهي لم تأسف على المدينة اذ غادرها الى دمشق ، ولم تأس على اولئك الاصحاب الذين كانوا هـا كما كانت لهم ، كانت وهي في طريقها الى الشام ، لا تفلم الا بفكرة واحدة ، كانت تحم في ان تجد في الخليفة الشخصية التي تؤمن هـ ، ما تصور اليه من توف ومرف ، فلما التقت بسلامة في قصر الخليفة ، كان اول ما عمدت اليه ، ان استغفت هـا وسفرت منها ، غير حادة بحق التأديب وحرمة التعميم هذا وسلامة ، استاؤة حباة . اما الخليفة هذا الانسان الذي كان يأسل ان يجد في حباة ، مدى لعواطف لم تلق صدى لدى سلامة ، فقد طاب نفسا يهده المتوهة المرحمة اللعوب ، ونعم بالا يهده المرأة الواقة الطروب ، احس يزيد بان قوة حبة تجده الى حباة ، وتربط حياته بحياتها ومصيره بمصيرها ، وبالرغم من هذا الاحساس ، فقد ظل يادى دي يده حريصا على كبت مشاعره ، فلم بجانب الحذر باسباب الحبطة ، ولكن عين حباة الذكية العظيمة ، ادركت ما يحامر قلب يزيد ، ادركت بفرزتهم الساتية اليقظة ، ان الرجل الذي امامها فقد الثقة بالمرأة ، وهو الذي لا بقوى على الحبة بدون امرأة ، وان كبرياه الماهرة بصت ، اخرج ما تكون انى بلسم ، وعلى هذا الضوء مضت حباة تنثر الطلسم ، ها وهناك ، مستغلة ما حتم اليه الطبيعة ، من جمال وجهه وطيب صوت ، وهكذا استطاعت حباة في النهاية ، لا ان تطرق باب قلب يزيد ،

بل ان تقيم في سويداء هذا القلب ، فاحتت مكان سلامة ، وغادرت طيور الحب القديم وكرها ، لتفصح المجال لطير جديد ، جاء برقي لا عاصم ها .

ومضت الايام تبعا ، مشرقة راحية ، لا شيء يقص مصعب حيابة ، وينقص راحتها ويحرق روائع حياتها ، فقد وجدت العانة ، في قصر الخليفة وقلب الخليفة ما كانت تخلم به وتصبو اليه ، فاهوت على ينبوع السعادة ، تمل منه وتعب وانطلقت في اجواء الامراح ، ترسل ديباها معها ، ولكن هذا السبوع الذي كان يتدفق في امن ودعة ، ما لث ان اضطرب واعتكر ، فاكهرت الافاق المشرقة ، واقفرت الارجاء الالهة ، فلم يعد الصبح يحمل معه ممسات القلب ، ولا الليل بطوي معه وعشات الحب ، فقد اطل من اعماق العلام ، شبح مقبت ومخيف ، شبح اولئك الذين عز عليهم ان ينصرف الخليفة عن شؤون السلطان ، الى امرأة تأخذ عنه نفسه وتشغله عن ملكه ، فبدى الرعية وامور الرعية وقد كان مسلمة شقيق الخليفة من اكثر اولئك الناس غيرة عليه ، كان هذا الاخ العارس البطل ، يدرك النتائج التي ترقب شقيقه ، فيما اطل منصرفا الى ما هو في سبيله ، فما بصر بالخطر الذي يحيق بهذا الاخ مضي اليه قائلا : (انك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وتشاقلت بالاماء عن النظر في الامور ، والوفود ببابك ، واصحاب الطمات يصيرون وانت فاهل) واصفى يزيد الى نصيحة اخيه ، فردد بيته وبين نفسه : لقد قال مسلمة الحق فقد انصرف الى العناء واشرب وشعلني امرأة عن كل شيء ، وانا حفيد معاوية وابن عبد الملك ، فهل يحمل برجل مثلي ، ان يحمل امر الخلافة ، لاجل كأس وقية ؟ والتفت يزيد الى اخيه مسلمة وفاهل صدقت .

وعاف يزيد الكأس كما عاف حسانه وانصرف عن المدام والفرام ، الى الملك والسلطان ، ولما رأت حيابة ان الطير قد اقلت من القفص ، وان يزيد صدف بوجهه عنها ، ثارت حفيظتها على مسلمة واحوان مسلمة ، وادركت انها اذا ظلت بعيدة عن عبي يزيد ، صاغت ، وضاعت الى الابد .

تري ما الذي تصنع ؟ انقع في راوية مهدمة من روانا القصر ، وتتغلى عن الحياة التي نعمت بفدتها ؟ انها لا تريد ان تكون ملكة الحب المخنوعة ، الملكة التي سلبت عرشها ، دأطوت على نفسها في حزن ، نجيا في عالم الدكريت والسيات والاهمال ، ها ، ذكرت حيابة بلدها الطيبة واصحابها واصدقاءها ، اولئك الذين

أحبوها وحدبوا عليها ، وخفروا الى وداعها ، جزعين آسفين ينشدون بين يديها —
 القصائد ويرتلون الاعاني ، ذكرت كيف سخرت من دموعهم وعشت بشعورهم ،
 وكيف ودت في سرها ، لو تطير علي بساط ريح ، حتى تنتهي منهم وتنتأى عنهم
 وما هي ذي الان تذكر هؤلاء الناس الواحد تلو الآخر ، ومن بعيد ، لمعت بخاطرها
 فكرة ، فراحت تتساءل :

لماذا لا اعوذ هؤلاء الاصدقاء ؟

لماذا لا اطلق آخر سهم في جعبي ؟

وكتبت حيازة الى صديقها الشاعر الاحوص ، كنت اليه تعلمه واقع الحال ،
 وما كان في مقدور انسان اظير الاحوص ، تجاهل رجاء تتقدم به حيازة ، كان
 الشاعر يقدرها ويمطف عليها ، كما كان يرجو نواها ونوابها ومن وحي هاتين الرغبتين
 نظم الشاعر قصيدة طنها له معبد .

الا لا تله اليوم ان يتبدل
 بكت الصبا جهدي من شاء لامي
 واني وان فندت في طلب الصبا
 اذا انت لم تعشق ولم تدر ما المرى
 فما العيش الا ما تله وتشتهي
 فقد غلب المهرجون ان يتجملوا
 ومن شاء آمي في البكاء واسعدا
 لاعلم اني لست في الطب اوحدا
 فكن حمرآ من يابس الصخر جليدا
 وان لام فيه دو الشن وفندا

وحفظت حيازة القصيدة واللعن ، وراحت تنحب العرص الموانبة ، لتفني بين
 يدي يزيد ، فقد كانت حيازة تعلم حق العلم ، ان حيازة معلقة على هذه القصيدة ، وما
 كان يوم جمعة (تعرضت له عند خروجه الى الصلاة ، فغنته والعود في يدها) ، وما
 كان من يزيد الا ان صرف وجهه عنها ، ولكن حيازة لم ينأس ولم تقنط فاطلقت
 عقيرتها في الغناء ، حتى اذا ما رددت « وما العيش الا ما تله وتشتهي » ، انها يزيد
 وتداعي ، واستعاب الى ذاك النداء الذي طامنا تجاهه ، وهكذا ظفرت حيازة من
 جديد بقلب يزيد ، وعادت تلك الراحة التي اقوت معالمها واقفرت ارجاؤها ، سيرتها
 الاولى ، فارهت واشرفت ، واسطقت الطيور من الاوكار تغني وتغرد ولكن
 هذه البسة الرقيقة المرحية ، التي رفت على شعبي الرمن ، ما لبثت ان تقلصت
 وتجهمت ، اذ مرعان ما خطب الموت حيازة من بين يدي يزيد ، وسرعان ما لحق
 يزيد بتلك المخلوقة التي شغفته حباً .

العريض

مضت القافلة الى الطائف مربعة خفيفة ، والصبح ينثر أضواءه الضاحكة على الرمال المحرقة الوهاجة ، وعلى وقع ماسم الابل وشدر الحادي ، كانت الثريا تردد بصوتها الرخيم ، قصيدة لعمر بن أبي ربيعة ، وبين العينة والعينة تهب سمة لطيفة وابية فتتلفت الثريا الى الوراء ، الى حيث يقف صبر ، وفي نظرتها لمعة منسائلة :

تري ما الذي يصنعه صبر ؟

ابذكري كما اذكركه ؟

وفي حسرة الشك ومرارة ، تلقي الثريا برأسها الجنب على صدرها العامر ، وتستغرق في تأملات متوجة مصطربة ، فقد كانت تعرف صبر حق المعرفة ، تعرف طبيعة هذا الشاعر المعامر الافاق ، الشعر الذي لا صباح طبه ، وبالرغم من هذا كله فقد كانت تريد وتحرص عليه لا شيء ، بل لتوضي ككبرياء الجبال هذا الكبير الاصيل في نفسها المنطوع دائماً وابدأ ، اى من ينمى له ويشبه عمارته ، كانت الثريا امرأة تعبد ذاتها وتحب ان ترى آثار هذه العبادة في النظرات المتألقة والاحلام الحائلة والامال الباسمة ، ودا لم نجد من يصلي في محراب حمائم ، نصدت للناس تعويهم ونغريهم ونوقظ فيهم مشاعرهم الرافدة الكامنة ، حتى اذا اخذتهم عن انفسهم ، نعمت بالا وتوسدت عرشها ثلة دون ان ندوق حررة . فكم كان مروحها عظيما وسرورها جسيما حينما خف اليها صبر ، خف الى الطائف ليسكن في اديها ترانيل الحب وانشيد القلب . في مثل هذا الوسط الخالص بالحب والشعر ، وسعد ثريا بشأ العريض . كان فتى جميل الصورة ، حسن الصوت وكان من الذكاء بحيث استطاع في مدة قصيرة ترديد ما تقوم به حيدته من اعان ، والحان كلما خلت الى نفسها وآوت الى محدها

ولاحظت الثريا العبقرية الغنية الكامنة في هذا القمى، فم شأ أن تدعها على هواها
تنتطلق حيثما تنفق، لا هادي ولا دليل، فدفعت العريض إلى حارها، ابن سريخ،
أدلا منها بأن يتخرج على يديه فيصبح فنانا مرموفا، وصلى العريض إلى حيث بقيم
معلمه، يحده وبأخذه، ويجذو حده، في كل ما يرجع من الحن، ويظهر أن عبقرية
العريض التي تفتحت قبل الاوان، أثارت بحار ابن سريخ، فقد حشى تقدمه عليه
خشى (أن يأخذ غناؤه فيعلبه عند الناس) وصاعف منه حروف ابن سريخ، وجه
العريض، هذا الوجه الطري الذي ما كان في الامكان تحمله ائوه في العوس
فماذا عساه يصنع فجاه هذا الخطر الذي يهدد مستقبله القمي؟ لم يجد ابن سريخ فصل
من التحني على العريض، ليحمله بذلك على تركه وبعده، ولكن هذا التحني السافر
كان من الواضح بحيث أن غاية منه لم تحب على العريض، فما كان منه الا ان عاد
بالصبر واحد باسباب جلد، ولما رأى ابن سريخ ان محمله على العروض لم يجد شيئا
لم يجد مذوحة من طرده، وعاد العريض الى بيت دولاته شاكيا، وما روى
ما قصته، ادركت غرض ابن سريخ، ادركت ان الحسد وحده هو الذي حدا به
الى طرده فناه، وما كان في مقدور امرأة بطير ان تترك ان تسكت على هزيمة. اتوك
العريض وشأه، وهي التي وثته وحرصت على تخويجه في العناء؟ اندع مواهبه
الصوتية نذهب هذا؟

قد يقف ابن سريخ في وجه تقدم العريض، ولكنه ليس في وسعه حق عقوبته.
منها نواحيها الخاصة، فلماذا لا تعبه اياه؟ بد لا يأخذه ويعمي عليه؟ ولما عرست هذه
المكرة على العريض رجب ما واهلها، اد وحده فيها السبل الى مجده القمي المشهود.
ومنذ هذا اليوم راح العريض يستمع الى مراني الثريا واصواتها، حتى اد حفظ هذه
المراثي (احتداها وخرج غناء عليها - كالمراثي) ثم راح يقف اسفاده ابن سريخ
حق كان من الصعب العسير التعرق بين غناء ما بين

وهكذا لم يغف ابن سريخ حدره، ولم يجده نجيه على العريض وطرده اياه، فقد
مضى العريض نحو ما وطأ الدس عليه، مضى يشق طريقه في عالم من، يشق طريقه
نحو تلك الآفاق الرحاب ليتألق نجمه في سماء العناء العربي.

ولم يكن العريض مديبا للثريا، ودهار مواهبه القمية فحسب بل كان مديبا لها

بصدقة عمر بن أبي ربيعة أيضاً، فقد وجد الشاعر العربي عمر بن أبي ربيعة (دون
 جوان) ذاك العصر، في المعنى الغريص مداه الفني، ذاك المدى الغنائي الذي يرجع
 ما يضطرب في قلبه ويحيش في صدره، بحيث ألف الاثنان (تروبا دور) العصر
 الاموي كان عمر يعظم وكان الغريص يغني، ذاك يشيد شعرا بمفاتيح من يحب وهذا
 يتوهم غناء بتلك المعاني .

كان عمر بن أبي ربيعة يحب عائشة بنت طلحة وما كان في مقدوره ان يشاهده
 بعد ان شاع امره وذاع خبره، فقد توعدته قبيلة عائشة، ولا قبل لثله بانتقاء هذا الوعيد
 ان الموت هو ثمن الحب في ذاك الزمن، وعمر حريص على حياته حرص كل انسان
 يجد في الارض فردوسه المفقود، أبسكت الشعور وبدفن مقاره في صدره ؟ ان
 الشدو طبيعة احية في نفس عمر، طبيعة لاسيل الى كبتها ولا الى خنقها، وتلفت عمر
 ذات اليبين وذات الشمال، فلم يجد افضل من الغريص ربيب صديقه الثريا، وبسط
 الشاعر يده الى الفنان كما بسط له يده بالعطاء، هال الفنان لهذه البسطة المبسوطة، ولم
 يجد غضاظة فيما عرضه عليه الشاعر. كان عليه ان يلحن قصائد عمر في عائشة وان
 يرثيها بين يديها، فقد روى صاحب الاغانى ان عمر بن أبي ربيعة سأل الغريص ان يغني
 عائشة بنت طلحة بشعره .

اجمعت خلتي مع اخبرينا	جعل الله ذلك الوجه زينا
اجمعت بينها ولم نك منها	لدة العيش والشباب قضينا
فتولت حوصلها واستقلت	لم تنل طائلا ولم نقض دينا
ولقد قلت يوم مكة لما	اوسلت تقرأ السلام علينا
انعم الله بالرسول الذي ار	سل والمرسل الرسالة عينا

ووعد الغريص ان املها هذه الابيات في غناء، بخمسة الاف درهم، فوفى
 الغريص له ومال جائزته، كما قال جائرة بمائة من عائشة نفسها .-

وكما اوفده عمر، الى عائشة بنت طلحة، وكذلك اوفده الى سكينه بنت
 الحنين، فغناها شعره، وكانت سكينه، تدعو السموة لسباع الشعر والغناء،
 فغناها مرة :

الم يزينب ان الين قد افدا قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

فاعطته لكل بيت الف درهم . ولما زار الوليد بن عبد الملك مكة ، قدم عمر ،
الفريض للحليفة وقال له (عندي اجل الناس وجها واحسنهم صوتا ، فلما دعا به
غنى العريض .

اني لأحفظ مركزكم ويسرني لو تعبدن بصلح ان تدكري
ولم ينس العريض مولاته القربا ، هذه المرأة التي رثت وتمهدت عقيرته ، ونعمت
من جماله عنتا عظيما ، فقد ناح عليها وبكائها غناء ، حينما ماتت ، وقبل أن نواجهه كان
اشجع غناء رده في حياته .

* * *

كان العريض نظير غيره من العساكر الذين عاشوا لغيرهم ، اكنوزهم لانفسهم ،
فالذين ما كان متعته الدائبة المجردة ، بل متعة اولئك الذين يعدقون عليه الهبات
ويجودون بالصلوات ، بحيث ان شخصيته العبة المستقلة ، هذه الشخصية التي تنطق
بشكل حرية في الاجواء ، لتودد عواطفها وترجع مشاعرها ، كانت مقيدة بوضع
المجتمع ، كان العريض ، مولى ، وليس للمولى من امره شيء ، انه حفيظ مبتدل في نظر
السادة ، بحكم وضعه الاجتماعي ، وحفيظ مبتدل في نظر اساء وسطه ، بحكم المهنة التي
يمارسها والصنعة التي يزاولها ، الاحكام الاسلامية التي جعلت من الناس سوا ، كانت ضعيفة
الاثار في العصر الاموي ، والعبقريه الغنية التي سمت بالذين من الاغوار السملى ، الى
عالم الشهرة والمجد ، لم تمكنه من الظفر بالمساواة المطلقة ، ودوق هذا كله ، فان
حياة الفنان الاقتصادية - حياته المعاشية - كانت موقوفة على صوبات الامراء
ونزوات السادة الاثرياء ، في هذه البيئة عاش العريض ، كان مولى ، تحدر من اصل
بربري ، وكان جبلا رافع الجبال ، يصنع نفسه ويعرقها ، دفعه اعتداده بجماله الى
التنخس ، كان مثل فارسيس ، دائما وابدا ، بطل على العذير ، يتلى بحسه ويتجلى
مفاته ، حتى اذا اخذته عن نفسه نظراته ، تحدى الطبيعة وصفي عليها من صنع
يديه ، ما جعله عزاة الفارثين وسحرية السخرين ، وما كان في مقدور مجتمع نظير
المجتمع الاموي ، ان يعصي الطرف عن مثل هذه النزوة ، ان كان مجتمع رجولة
وبطولة ، فلاحق الفخمين وناقضهم ، وكان نصيب العريض من هذه المشاهدة وتلك
الملاحقة ، ان قضى شطرا من ايامه الاخيرة ، بعيدا عن مكة ، بعيدا عن ذلك الوسط
الفني الذي احبه وهام به ، فقد كان نافع بن علقمة ، الذي ولي مكة حينما من

الدهر ، في زمن سليمان بن عبد الملك ، من أشد فلولاة كرها لدهشيين ، بكل بهم وقسا عليهم ، هرب العريض واستخفى ، وقضى ملاوة من الزمن لا يروح مكانه ولا يزياله ، فاستدرجه الوالي للظهور ، أملا منه بلايقاع به ، ولكن هذه الحيلة لم تنطل على العنان ، هرب وهو لا يلوى على شيء ، هرب الى اليمن ، ليعيش في بلد لا يفهمه ولا يقدر فيه ، وقد كان من اليسير على الفريض ان يمسى مكة ، ولياليها الزاهرة ، لو وجد في اليمن وسطه الفني ، هذا الوسط الذي يتجاوب مع مشعره المرهقة ، ولكن الفريض لم يجد شيئا من هذا ، فلاذن الموسيقى التي خص بها أهل الحجاز ، والظرف الذي عرف به أهل الحجاز ، كانا مفقودين في اليمن ، لا أثر لهما ولا ظل ، فكان الفريض اذا لقي حجاريا ، وحب به وهمل له ، كان يجسد في كل رجل من رجال تلك الرقعة المقدسة ، أرج الأرض التي درج فوقها وشب عليها ، الأرض التي أوحى اليه ناروع آيات الفن ، وكان للعريض ادالغ به البين ورمضه الفراق ، أرسل دموعه سخية سخية ، يبكي الأهل والوطن ، كما يندب حظه العائر الذي القى به ، بين ظهرائي قوم ، لا يفهمهم ولا يفهمون ، يرونه وهو يحصل العود بيده ، فيقولون له : انسبع آخره الرجل ؟ ويرفع العريض رأسه ، ثم ينكسه ويمضي ، ويمضي والاسى يحز قلبه ، على قوم لا يفرقون بين العود ومؤخرة الرجل التي يستند اليها الراكب ، في مثل هذه الساعات المنيرة ، كان العريض يعود بنفسه الى الورا ، الى ذلك الزمن السعيد الذي قضاه في ربوع الحجاز ، وكيف كان أهل تلك الرقعة من الأرض ، بقدسون الفن وبجدونه ، وكيف كانوا ينددون من كل حذب وصوب ، للدفاع عن الفنانين ، فيما اذا نزلت بهم نائبة أوحاق بهم مكروه ، انه يدكر ذلك الوالي الذي امر باخراج المغنين من الحرم ، وكيف اجتمع الى معبد وابن مريح على « ابي قبيل » ليلة المعى فمى معبدا

اتري من اعلى معد هديتا اجد البكا ان التفروق باكر
فتأوه أهل مكة ، ولما اندفع هو - الفريض - يعني :
ايما الرايح الجدد استكارا قد فتى من نهمة الاوطارا
ارتفع البكاء والحجب ، حتى اذغنى ابن مريح :
جدودي الوصل باقريب وجودي لمحب فراقه قد الما

ليس بين الحياة والموت الا
ان يردوا جالهم فتزما

تعالى الصراح في الدور بالويل والحرب ، واجتمع الناس الى الامير فاستغفوه
من نفيهم ، فاعفاهم . انه الآن في اليمن يذكر تلك الليلة ، كما يذكر ، يزيد
بن عبد الملك الذي زار مكة ، وكيف غي مرآ بين يديه ، وعائشة بنت طلحة ،
وسكينة بنت الحسين ، وساء مكة القواني كن يستمعن اليه ، وهو يغني شعر
محر بن ابي ربيعة ، لقد كانت ايام مكة تمر امامه تباعا ، كل يوم في طياته عبق
فواح ، لا بل في كل ساعة وفي كل دقيقة ، متعة فائقة ، ولذة شائقة ، كذلك كان
ماضيه ودكرياته المنموجة المتوافقة ، تطرق حاضره الموجع الاليم ، فيستيقظ على
تلك الضربات المتواصلة ، ثم يستغرق في دهرول طويل .

ولكن هذا الليل ، الذي خيل اليه ، الا صباح له ، ما ليس ان ثلاثي ، فاشرفت
السماء وتبددت الغيوم ، وعاد الزمن سيرته الاولى ، عاد ليعمله الى الحجاز من
جديد ، ولكن بعد ان زایلته رهوة الشباب ، وحماة الفتوة ، فاذ به بقم باصر في
اطراف مكة ، فيخف اليه الناس ، ومعهم الهدايا ، فيقف الغريص في قصره ،
ليشرف على تلك المواكب التي آمت القصر ، لتحتفي بعقربة الفن ، وفد لوجتها
الكهولة بغاليتها البيضاء ، وسارت في ركابها ، افراح المجد .

. . .

أخذ اسم الغريص ، ينتشر في أوساط مكة ، منذ اليوم الذي دخل فيه المآتم ،
كانت تضرب دونه الحب ، فيستول في الغناء ، حتى يفن كل من سمع ، ولم
تكن للغريص ، في مطلع حياته الفنية ، طريقة غنائية خاصة ، عرف به وعرفت
به ، وإنما كان يسير على عرار طريقة معلمه ابن سريج ، يقده ويحتذيه وينعونه
ويحاربه ، حتى كان من الصعب العسير على الانسان ، التفريق بين المعلم ، والتلميذ ،
لما تربتها في الغناء ، ولما كثر غناء الغريص وعدل اليه الناس ، ذهب النقاد في أمر
المطربين ، مذاهب شتى ، فانصار القديم ، أولئك الذين يسرون في ركاب الماضي
ويعتزون بقرائه ، كانوا من انصار ابن سريج ، يؤثرون على الغريص ، لا شيء ،
بل لانه له فضل السبق ، كانوا يقولون : لقد أحد الغريص عن ابن سريج ، وعرف

من بجره ، أما انصار الحديد ، فقد كانوا بذهبون غير هذا المذهب ، ويرون غير هذا الرأي ، كانوا ينظرون الى العريض ، نظرتهم الى مثل جليلهم ، يعبر عن مشاعرهم ويتحدث عن عواصمهم ، انه قطعة حية منهم ، انا ذاك ، ابن سريج ، هم يعد في عرفهم ، الا رثا حالداً ، عاش لرمه واسطوى مع هذا الرمن ، ومن خلال هذا ودالك ، كانت هناك آراء معتدلة ، آراء تضع الاشياء في نصابها ، فلا هي مسرفة في التشيع لان سريج ، ولا هي معرقة في نصرة العريض ، كانت هذه الآراء تبين الى الاحد باسباب القدر العمي المجرد ، القصص الموضوعي الذي لا يتأثر بالعوامل الشخصية والبروت المردية ، وكان العريق الذي يعتقد بثل هذه الآراء ، يرى ان ابن سريج احكم صفة ، والعريض اشعي عاء ، ولا كبير فرق بين هاتين ، لعب كل منهما دوراً خطيراً في تاريخ العناء العربي ، فسكينة بنت الحسين ، كانت لا تفرق بين المطربين ، شبهت لاشبهه بالؤلؤ في أعناق الجواري الحسان ، لا يدري الانسان في ذلك احسن ، ومهما يكن الامر ، فالعريض كان مجدداً في العناء العربي ، لم يكن مقلداً لاس سريج فعصب ، من كان مبدعاً ايضاً ، بما أدخله على الغناء العربي من اغاني الرهبان وغير الرهبان ، وبالرغم من هذا الخلاف العنيف ، بالرغم من تحامل ابن سريج على العريض ، وبعته اياه بالتخلف ، وبالرغم من تحدي العريض لاس سريج ووصفه بانه بالتقصير في العناء ، فقد كانت بين المرءين ، ابن سريج والعريض ، ومطربي ذلك العصر ، وحدة فنية ، وحدة خلقية بان يطلق عليها اسم « احوه الفن » ، كان النزاع بين هاتين العصر الاموي ، نزاعاً معنوي أكثر منه مادي ، لم يكن ، احدهم يبارع الآخر ، على مورد رزقه ، ويعمل بجاهدأ على قطع هذا المورد ، وانما كان ينافس على الشهرة وبعد الصيت من ناحية ، وعلى الابداع من ناحية اخرى ، كان هاتين العصر الاموي ، اذا ما تعرض الفن لطفر ما ، تصافروا وانحدوا ، وعادوا بالرأي العام ، يشدون نصرته ويطلبون معونته ، صد وال لا يقيم للفن حرمة ، وكانوا يتداعون الى ريادة بعضهم بعضاً ، بقصد التعارف وتبذل السماع ، فقد كتب ابن سريج ومعبد والعريض ، الى حنين الجبوري ، يدعونه الى ريادة الارض المقدسة ، قالوا له : نحن ثلاثة وانت واحد ، فانت حليتي يزبدربنا ، فذهب الكتاب مع العفة الى الحيرة ، حيث يقيم حنين ،

فلما تلاء لى الدعوة ، وتوجه الى الحجاز ، فخرج المطربون الثلاثة ، مع رهط كبير من الاهل ، لاستقبال العمان على مرحلة من المدينة ، وكان استقبالا حافلا رائعا ، وصفت الكتب الادبية « لم ير يوم كان اكثر حشداً ولا جمعا من يومئذ » ، ودخل الموكب منزل مكتبة بنت الحسين ، فاذنت للناس ادبا عاماء ، ففتت الدار وصعد الاملون فوق السطح ، ولما آب حنين الى الحيرة ، رآه بن سريج ، ونزل ضيفا عليه ، فقربه حنين الى الوالي ونال حوائزه ، وبعد ان قضى ابن سريج مدة في ضيافة حنين ، جهزه حنين وودعه .

كذلك كانت حياة العناني في العصر الاموي ، حياة احكمت اواصرها اخوة فنية لا تنفصم ، فاذا كان ثمة خلاف بين ابن سريج والفريض ، فان هذا الخلاف لم يدخل مرحلة التناحر ، كما كان عليه الحال في العصر العباسي .



العصر العباسي

في منتصف القرن الثاني للهجرة ، شهد تاريخ الاساسية ، ابتناق فيجر مسيدين
جديدة ، مدينة لعبت اروع دور في تاريخ الحصرة ، كانت هذه المدينة التي شيدتها
المصور في عام الخامس و الاربعين من المائة ، تقع في منتصف عالم الحصرة القديم ،
حيث التقى المعروف و المصنف لافكار ، و يحد اليها اعظم تراث عربي ، الا وهو
تراث الامم و الامم . كانت هذه المدينة ، بغداد ، عاصمة الدنيا ، كما قال
دعك الخطيب البغدادي في تاريخه ، وكانت وارداتها السنوية تروى على ثمانية عشر
مليون دينار ، كما روى ياقوت الحموي ، . قال محمد بن سلام : سمعت الوليد يقول :
ادخلت بغداد ؟ قلت لا فاجاب ! كذلك لم تر الدنيا . و قد محمد بن ادريس
لصاحبه يونس . ادخلت بغداد ؟ فاجاب لا . قال ابن ادريس . يا يونس ما رأيت
الدنيا ولا رأيت لدن . و قد لوح كيف رأيت بغداد ؟ فاجاب ! الارض كلها
بادية ، و بغداد حصرها مثل هذا الوصف ، و صفت عاصمة العباسيين ، عروس
الاساطير و حبة الاحلام ، فقد اس الخلفاء العباسيون ، في ابداع حاضرة ملكهم
و عاصمة سددهم ، و قد عكسوا الاف المضافة على القصور و المساجد ، و جعلوا من تلك
الوفاة من الارض لمي خلق عليها فيها منى ، و هبة الله و فردوسا زاهيا زاهرا ،
يؤور بانفس و يعرض به مع ، فقد ، و كتب التاريخ ، ان فقدت قصر السلام ،
ارست على خمسين مليون درهم ، و اس سكايف قصر الثريا ، قدرت باربين الف
دينار ، و ان ما صرف على القصر الحسى بحدود العشرين مليون درهم كما روت كتب
التاريخ ايضا . المصاحف المربعة لبعض هذه الصور بلغت ثلاثة فراسخ ، و انها كانت
تخوي على اشهر من لعة و فرسان من النمايين و حير الوحش و برك و اقبال و صباغ ،
و ما الى ذلك من المصاحف التي ن دلت على شي ، و اما تدل على ارف لا يبارى
و صرف لا يجارى ، فقد توفرت هذا العصر ، و سائل لم تتوفر له من عصور
التاريخ العربي ، فقد تندد الطمع العصري الذي كان مسيطرا على الحياة العامة في
العصر الاموي ، و من محله طامع المواطن العباسي ، منها كانت جنسيته و منها كانت

أرومته ، واختلطت العاصم وامتزجت ببعضها بعضا ، عن طريق التزاوج ، الأمر الذي أدى ، الى نشوء اجيال جديدة ، اجيال لغتها عربية وقوميتها اسلامية ، فكان من جراء هذا ، ان تبدلت نظرة العرب للاشياء ، وتأثرهم بالاشياء ، وساد الاستقرار الداخلي والخارجي ، في العصر العباسي ، بالنسبة الى ما كان عليه في العصر الأموي ، فأنصرف الخلفاء الى تعزيز حركة الترجمة والتأليف ، وازدهرت الحاضرة وبث ، بعض الثروة والثقافة ، فعب ارتكك الذين مكن الله لهم في الارض ، من ينبوع ما فحدر اليهم من طارف وما تناهى اليهم من قلبه ، فقد كانت الدنيا ملك ايمانهم ، تشرق الشمس على صبوح وتغرب على غسق ، والعمر زهرة والحياة بسمة ، وما بين كأس مترعة ، مرغان مائضب ، وكأس تفرق فيها صباية ، مرغان مائطع ، ما بين هذا وذاك ، كانت الايام تنساب ، حاملة هابسة ، في مثل هذا الافق الرحب ، كانت الموسيقى ، تمتد وتنداح ، لتتجاوب مع طبيعة العصر الذي اقبلت فيه ، كانت الموسيقى تمتد ، لتكون صدى حضارة ، نقضت عنها رمال الصحراء ، وآوت الى ابداء وارف ، بعد ان ودعت تلك الاغان البطيبة الكسلى ، تلك الاغان التي ما كانت تتحرك بها الشعاء ، الا على حركة وقع مباسم الابل ، فقد رجعت في بغداد الملاذ الامين ، الملاح الذي ترناح اليه ونطقت ، فترامت على معاور خضراء ، مفارز مخضلة بديرة رطبة ، وصف ابو حيان التوحيدي في كتابه الامتاع والمؤانسة ، صورة من صور ذلك العصر فقال : (احصيت ونحن جماعة في الكرخ ، اربعمائة وستين وحمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الخلق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى ما كما لا يطعربه ، ولا تصل اليه ، لعرته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كما نسمعه من لا يتظاهر بالعناء ، والصرب ، الا اذا نشط في وقت وغفل في حال) ، وذهب الجاحظ الى القول : ان اهل بغداد كانوا يعدون وراء باعة الجلاب ، ليستمعوا الى اصواتهم الحسنة ، وروي ان ابن الككات ، عني على جسر بغداد (وكان على دجلة ثلاثة جسر ، فاقطعت الطرق ، وامتلات الجسور بالناس ، فاردحموا عليها واضطربت حتى حيف عليها ان تقطع لثقل من عليها من الناس) ، وهكذا اذهمت الحضارة اذن المواطن للعاسي الموسيقية ، فصار يعدو وراء باعة

الجلاب ، كما صار يزاحم بعضه بعضا فوق الحضور ، ليصفي الى صوت جميل ، وينثر هنا وهناك ، في الاصال الصاحبة ، ليلهو ويدعب ويسرح ويمرح ، لقد ألقت الحضارة بطلاها على ذلك العصر ، فأورقت الحياة في واحات القصور العاجية ، فعبث الفن عن دنيا هذه الواحات ، فكان صورة حية ، لعالم الخلفاء والامراء والسادة ، هذا العالم الارستقراطي الذي أطلقوا عليه اسم طابع العصر .

ولكن الى جانب ، هذه المعرفة وتلك الثروة اشياء اخرى ، ساعدت الفن على المضي في انطلاقه ، نحو ما رسمته له طبيعة العصر ، كان معظم خلفاء الدولة العباسية من ذوي الادب الموسيقية المرحقة ، لا بل كانوا من اصحاب الصنعة في فن الغناء ، فقد كان الخليفة الواثق بالله ، من اولئك الذين درت لهم صنعة في الغناء ، روى صاحب الاغانى ، قال : اسحاق بن ابراهيم الموصلي دخلت يوما دار الواثق بالله بغير اذن ، الى موضع أمر ان ادخله اذا كان جالسا ، فسمعت صوت عود ، من بيت ، وترنالم اسمع احسن منه ، فاطلع خادمه رأسه ، ثم رده وصاح بي ، هذا انا بالواثق بالله يعني فقال الواثق :

اي شيء سمعت ؟ فقلت سمعت ما لم اسمع مثله قط حسنا ، فضحك وقال : وما هو ؟ اما هذه فصلة ادب وعلم ، مدحه الاوائل واشتهاه اصحاب رسول الله والتابعون بعدهم ، وكثر في حرم الله عز وجل ومهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحب ان تسمعه ؟ فقلت بلى والله الذي شرفني بخطابك ، فقال يا علام الهات العود ، واعط اسحق رطلا ، فدهع الرطل الي ، وعى في شعر لابي العنابية بلعن صمعه فيه : ونقول عريب المأمونية . صبح الواثق بالله مائة بصوت ما فيها صوت ساقط ، وقد صنع في هذا الشعر :

هل نعيم وراء الحب منزلة تدني اليك فان الحب اقصائي

هذا كتاب فتى طالت بليته يقول يا مشتكى بشي واحزاني

ويدعب المؤرخون الى القول : ان الواثق بالله كان اذا اراد ان يعرض صنعته على اسحاق نسبها الى غيره وقال : وقع الينا صوت قديم من بعض المعاجز فاسمعه ، وامر من يغنيه اباه .

ويقول اسحق الموصلي ان الواثق كان من اعم الناس بالعلم ، وكان من احذق

من غنى بضرب العود .

اما الخليفة المنصور بالله ، فقد روى الحسن المهدي انه كان حسن العلم بالقناء ، وما يقال عن المنصور يقال ايضا عن المعتز بالله ، الذي ذكر انه كان يغني اصواتا ، والمعتمد الذي كانت له يد في العناء وصناعة حسنة ، عارض المعول من القدماء والمحدثين ، وقد وصف بانه كان يأتي بالعجب العجيب .

اما اولاد الخلفاء الذين اشتهروا بصناعة العناء ، فهما ابراهيم بن المهدي ، واخته عيبة بنت المهدي ، وقد قيل (لم ير في جاهلية ولا اسلام اح واحة احسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته عيبة) وصف صاحب الاعاني ابراهيم بن المهدي بقوله : (ان ابراهيم بن المهدي اشد خلق الله اعظاما للعناء واحرصهم عليه واشدهم منافسة فيه ، وكانت صنعته لينية) واما عيبة فقد وصفت (بحسن العناء وجودة الضرب) وكان لعيبة وابراهيم اخ ، هو يعقوب بن المهدي ، كان من اصدق الناس بالزمر ، وكان الرشيد واد هو ابو عيسى ، كان جيد الصنعة لادان مسوبة اليه ومعروفة به ، وكذلك عبد الله بن موسى الهادي ، كان من (احرب الناس بالعود واحسنهم غناء) .

وقد كان للموقف المتسامح الذي وقفه فريق من رجال الدين ، من فن القناء ، هذا الموقف الذي امنه الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على العصر العباسي ، اثره البارز في تقدم الموسيقى ، فالتزمت الذي لازم اولئك الذين حرروا سمع العناء ، وقالوا بعدم جوره ، مالمثل ان تضائل الي حد بعيد ، فقد روت كتب التاريخ ان عدداً من الثقات مارسوا فن القناء واخذوا منه باوفر نصيب ، فقد قيل ان ابراهيم بن سعد كان يبيع السماع وبضرب بالعود ويغني به ، سأل الرشيد ذات مرة (من كان من ففهانكم ينكر العناء ؟ فأجاب : من ربط الله على قلبه) ويقول صاحب حياة الارب ، ان ابراهيم بن سعد ، اقصم وهو في بغداد (لا احدث سعدا ما اتمت حديثا واحداً ، حتى اغني قلبه) ووصف محمد بن اسماعيل بن علي بأمون بأنه (كان عالماً بالعناء جميعاً) . ان هذه القصص التي رويناها لكتاب التاريخ والسير والادب تعطي صورة واضحة ، عن الطور الذي طرأ على عقاية رجال الدين في العصر العباسي ، فقد سئل مالك بن انس عن السماع فقال (ما درى اهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ولا يفقدون عنه ولا ينكره الا غني جاهل

او ناسك غليظ الطمع) وروى الحافظ ابو العصل قال . مررنا مع الشافعي و ابراهيم
ابن اسماعيل على دار قوم وجارية تعيهم :

خليلي ما بال المطايا كأنهم — تراها على الاعقاب بالقوم تكص
، فقال الشافعي : ميلوا بنا نسمع .

فلما فرغت : قال الشافعي ل ابراهيم . ايطربك هذا ؟ قال ابراهيم لا . فأجابه
الشافعي : بما لك حس .

وهناك حكاية تروى عن الامام احمد بن حنبل فقد قيل : كان للامام احمد بن
حنبل حمار ، وهذا الحمار مغرم بالشراب كالم به ، فكان اذا وصى المساء وعاد من
صمده الى منزله ، بسط لمائدة ووصف الصحون والقاني ، وراح يعني قول العرجي :
اصاعوني ودي فتى اصاعوا ليوم كربة وسداد ثغر

وافترق لهذا الجار ان قبض عليه الحرس ، فلم يعد الى منزله ، ولم يسمع الامام
غناه على جري عادته ، فاستوحش له وقال لاهله ما فعل جارنا الكيالي ؟ فقلوا :
اخذه العسس وهو بالحلس . فابطلق الامام الى صاحب الشرطة عيسى بن موسى ،
وكان ابو حبيبة قبيلا ما يأتي ابواب الملوك . فحلف اليه عيسى واقبل عليه ، وسأله عما
جاء به . فقال . اصلح الله الامير ، ان لي جاراً من الكياليين اخذه عسس الامير
ليلة كذا . فوقع في حبسه . فامر عيسى بن موسى بطلاق كل من في الحبس اكراما
لاي حبيفة ، وابطلق الكيالي الى الامام شاكرآ ، فلما رآه الامام قال له : اضفناك
يا فتى ؟ فقل الكيالي . لا والله . ولكك بروت وحفظت .

وروى صاحب عيون الاخبار ، قال علي بن هشام : كن عندنا في مرو فاقض
يقص قبيكينا ، ثم يخرج بعد ذلك طبعوراً من كفه فيضرب به ويغني ، وكان يقول
في غناه ما معناه : ينمي مع هذا العم فليس فرح .

كذلك كان شأن رجل داك العصر ، تسمع وتساءل ، ولا تزم ولا تعصب ،
اجازوا في هذا العصر تحسين الصوت في القراءة والادان ، كما اجازوا للسباع ، وقد
وحل الامر يقض ولي قضاء المدينة ومكة في زمن المنصور ان ظل يتابع اشاده
دون ان يحفل بانذار صاحبه الذي هدده بقوله .

تغني اصلحك الله ؟ وانت في جلالك وشرفك ؟ اما والله لاحدون من ركبنا نجد .

. . .

كان العصر العباسي عصرآ جديداً في تصويره وتصويره للاشياء ، فقد تنامت
 الى هذا العصر حركات واشجة في القدم ، من افريقية الى فارس الى هندية الى
 مصرية ، كما تنامي الى هذا العصر اثرات الامبراطورية الاموية ، اعظم امبراطورية
 عرفت في تاريخ العرب ، وقد كان من جراء هذا التطور الذي طرأ على دنيا
 العرب والمسلمين في العصر العباسي ، ان تقدم فن العناء بتقدم الحضارة ، واتسعت
 آفاق هذا الفن ، بانساع الثروة وبسطة العيش ، فلم يعد الموطن العباسي يظن الى
 ما يقع تحت تناول يده ، نظرة الجاهلي أو الاموي ، بل راح يتطلع الى الاشياء
 تطلعا جديداً يتجاوب مع طبيعة العصر الذي يعيش بين طهرايه ، وهذا العصر
 لذي فصت الارضاح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيه ، بتبدل القيم وتحول
 المفاهيم واختلاف المقاييس ، لم يعد المواطن العباسي ليقتنع بالغناء البسيط الساذج ،
 الذي ينقش به أبناء الاجيال الممومة ، لم يعد يجد في العناء القديم ، صدى لما يجيش في
 صدره من عواطف وما يضطرب في قلبه من مشاعر ، لا بل انه لم يعد يجد في ذلك
 القناء العناء الروحي الحية طمرت بحظ من فكر وصيب من ثقافة ، وبات من
 المير على احساسها السعي ، تذوق الحان لاحظها من ابداع مبتكر ، فقد ولت
 اسطورة الالهام الى حيث لا معاد ، وبات الفنان في هذا الزمن يدرك حق الادراك ،
 ان تهاويل الوحي ونصورات الوهم ، لا تؤهل للعمل في ما ، لعمل يصلح أن يكون
 تحفة . خالدة أبدية الاطراد والجودة ، أصبح الفنان في هذا الزمن يعلم حق العم أن
 المواهب الطبيعية ، مما سمت بصاحبها ، ومما حقت برجلها ، لن بقدر لها البقاء ؛
 اذا لم تعزز بعمل ارادي ، لا أثر للعفوية فيه ، اذا لم تعزز بصنعة يتور على برستها
 الفنان ، توهر الصانع الحاذق على مهنته ، وقد اشر التوجيدي في مقاسة السماع
 والغناء واثرهما في النفس وحاجة الطبيعة الى الصنعة ، الى أهمية اثر الصنعة في الفن
 فقال : هالموسيقار ، ذا صاوت طبيعة ، دالة ومادة مستحبة وقرينة موازية وآلة خنقادة ،
 افرع عليها بتأييد العقل والنفس ، لبوسا موقفا وتاليا معجبا ، واعطاهما صورة
 ممشوعة ، وحلية مرموقة ، وقوته في ذلك تكون بمواصلة النفس اللاطقة ، فمن هذا
 احتاجت الطبيعة الى الصنعة . ولم يقف الامر بالتطور الذي طرأ على العناء
 العربي في العصر العباسي ، عند حد مواصلة العمل الفني المنجمل ، العمل الذي

يستمد عناصر وجوده من الخطرة العنيفة ، بل تعداه الى نقس الاسلوب الغنائي القديم ، الذي لا يتشئ مع واقع العصر الحبي ، فقد حرف كما يقول صاحب حياة الارب (محارق وعلوية القديم كله ؛ وصيرا فيه نفها فارسية ، فذا اتاهما الحجازي بالغناء الاول الثقيل فالاله ! يحتاج عناؤك الى معاده) .

وصار الولد ينكر على الوالد طريقته الموسيقية العتيقة ، فقد وصف (حكم الوادي) اهاريج والده بالتحت والمبوعة ، وما الى ذلك من الصفات التي اث دلت على شيء ، فاما تدل على التحول العميق الذي طرأ على عقلية ونفسية العرب في العصر العباسي ، وعلى تلك المعركة العنيفة التي قامت بين القديم والجديد . لقد كانت المعركة بين القديم والحديث في العصر العباسي معركة عنيفة لا عوادة فيها ولا لين معها ، فاقداس كانوا يحرصون كل الحرص على تراثهم ، لانه كان حياتهم ، وهم اذ يدافعون عنه اما يدافعون عن هذه الحياة ، كان قديمهم كل ما ملكت ايمانهم ، انه الجنة التي دعوا بها ، وهم في زهوة الفتوة وحاسة الشباب ، فكيف يتخلون عن هذه الجنة ، ليهبطوا رفعة لا عهد لهم بها من قبل ، انهم يوهبون المجهول ويخشونه ، لقد فقدوا الجرأة واعورهم الاقدام ، بقوا حيث هم ينكرون على غيرهم تلك النظرة المشرببة ، نظرة السر الذي يتطلع دائما ابدأ الى الافق الوعيب البعيد . والمجددون كانوا - يندفعون وراء بداء الحياة ، بحفزهم واقع حي نحو مثل أعلى زاهر مشرق ، ان حياتهم غضي أمامهم لا تقف حيث هي ، ولا ترند بنفسها الى الوراء ، انها تخوض الحدم ، دون ان تحمل شعيرة ، ذلك لانها تسطر - تاريخها بيدها ، ونجمل من كل تجربة ، عطة . في هذا العالم الذي كانت تتجاوزه قوتان ، قوتان متضادتان في الاتجاه ، كان فجر الجبل الجديد في العصر العباسي ينبثق ، دولا ب حصاره ينطق بقوة الايمان ، ليحقق التطور اللامائي للانسانية ، وهذا وهناك من يضع المراقيل في وجه هذا الدولا ب ، ليعول دون مضيه واطلاقه ، وليعيش في كهوف الماضي ، في ظلال ما سجنه العناكب ، وهم الاول ، الثاني بالشعورية ، وهم الثاني ، الاول ؛ بالمجد الجديد ، هذا استهان بالفكر ، وذلك بالوحي ، وكانت مشادة ، كان لها اثرها البعيد في مجرى تاريخ العصر العباسي .

ولكن التطور التاريخي للحضارة العباسية ، كان من القوة بكان ، بحيث ان القديم

الذي كان يعتقد بالتقاليد والعادات ، وما هو أشد ساعدا واعد اثرا من التقاليد والعادات ، لم يستطع ان يجد من نشاطه الحي ، فقد حاول احد الخلفاء - المعتمد بالله - ان يعود المجتمع القهري ، ان يعود به الى ما كان عليه في الزمن الحاضر ، فعزم الشراب وهي عن القياد ، لما الذي اوصت اليه هذه العودة ؟ ؟ لقد كانت النتيجة كما قال الممودي ، ان نقلت وطأة على الأمة والحاسة فاستطالوا خلافتها ، وسُموا اباة ، وعمدوا الحيلة عليه فقتلوه ، ولم يبق المعتمد بالله - على دست الحكم اكثر من سنة .

هكذا تطورت عقلية الناس في العصر العباسي حصارا جديدة ، تتطلب حياة جديدة ، ومفاهيم لا تقر المفاهيم القديمة ، وفيه حاضر لا تتعاطب مع القيم الغائبة ، فالموسيقار الذي يعتقد بالفن القديم ، والموسيقار الذي يعتقد بالمواهب الطبيعية دون ما اخذ بصحة ، لم يجد مكدنه تحت شمس هذا العصر ، بات المغني في هذا الزمن يحتاج الى اشياء كثيرة ، اشياء تنمشى مع طبيعة العصر الذي يعيش بن ظهرائيه .

قال مالك بن ابي السمع : سألت ابن ابي اسماعيل عن الحسن المصيب من المغنين فقال : هو الذي بشعب الايمان ، وببلا الاساس ، وببطل الاوزان ، وبفهم الالفاظ ، وبعرف الصواب ، وبقيم الاعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، وبحسن مقاطع النغم القصار ، وبصيب اجناس الايقاع ، وبجلس مواضع النبرات ، ويستوفي مايشاكلها من الثغرات .

هذا هو الحسن المصيب من المغنين والمطربين في عرف رجال العصر العباسي ، فليس الفنان هو ذاك الكائن الذي يصور له الوهم ان مواهبه الصوتية وحدها ، كافية لان تجعل منه دائما مرموقا له قيمته وله ورنه ، واما الفنان الحسن المصيب ، هو الذي توفرت فيه شرائط معينة ، لا بد منها ولا غني عنها ، فقد كان المعنون والمطربون في العصر العباسي ، من ذوي الثقافة الموهورة ، كان اسحق الموصلي من اعلم اهل زمانه ، ضرب بنصيب وافر في مختلف المعارف ، اما الفناء الذي عرف به واشتهر ، فقد كان اصل راد في جملة علومه . كان المعنون والمطربون في هذا العصر يؤلفون الكتب القيمة في فن الموسيقى الف احمد بن يحيى المكي كتاب (المجرى في الاغاني) ، والف يحيى بن رزوق المكي كتابا في (الاغاني ونسبها

واجناسها) ، والف عمرو بن دابة كتما في (الاغاني) ، وصف بانه اصل من الاصول ، وكان بين هؤلاء لمعين والمعيب شعراء ، كانت (علية بنت المهدي) تقول الشعر وتصوغ فيه الاطنان ، وكان محمد بن الاشعث يقول الشعر ويقفي فيه ايضا ، وكذلك عبد الله بن العباس الربيعي وغيرهم .

اما القيان فقد كانت تعد اعدادا حاصا ، يقوم المقيّن بهذا الاعداد ويشرف عليه كبار المغنين والمطربين ، فقد كانت القينة تعم الغناء والرفص ورواية الشعر ، يقول الجاحظ في كتابه القيان (تروي الحادقة منهن اربعة الاف صوت فصاعدا ، يكون للصوت فيما بين البيتين الى اربعة ابيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، اذا غرب بعضه ببعض عشرة لاف بيت ، وكانت القيان يتزاور فتقتبس الواحدة من الاخرى ما يعوزها وينقصها .

ولم تعد الموسيقى في هذا العصر مجرد عبث وهو ، بل اصبحت معرفة لها اثرها النفسي البعيد ، قال صاحب المستطرف (لا ترى الام كيف تناغمي ولدها هي قبل بسمه على مناعاتها وينهل عن البكاء ، والابل تزداد في نشاطها وقوتها بالحاء ، فترفع آذانها وتأنف بمنة ويسرة وتنبحت في مشيتها ؟ وزعموا ان السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حظائر ، ثم يضربون عندها باصوات مشجبة فتجذب السمك في الحظائر فيصيدونه ، والراعي اذا رفع صوته ونفع في براعته تلقته الغنم بآذانها ، وجدت في رعيها ، والدابة تعرف الماء فادا سمعت الصغير بالعت في الشرب . واستشهد المؤرخون في هذا العصر باقوال فلاسفة اليونان فقالوا ان افلاطون كان يحض على صمغ الغناء وانه قال (من حزن فليسمع الاصوات الحسنة ، فان النفس اذا حزت نخذت نارها ، فادا سمعت ما يطرحها اشتعل منها ما حذر) كما استشهدوا بتاريخ الفرس فقالوا (ما رالت ملوك فارس تلهي الخزون بالسماح وتعلل به المريض وتشعله عن التفكير) واصبحت الموسيقى موضوع بحث ودرس ، موضوع بحث له فو عده المقروءة واصوله المرصودة ، فقد سأل الخليفة المعتمد على الله ، في مجلس من مجالسه عبد الله بن جرداديه ، عن اول من اتخذ العود وسببه ، كما سألته عن اول من اتخذ الطبول والمعارف وآلات الطرب التي ابروم والآلات الطرب التي للهند ، والحاء عبد العرب وسببه ، واول من عني من العرب وفصل الغناء واثره ، وصفه

المغنى وأنواع الطرب ، وأنواع الغناء وقنونه ، وقد اجاب عبد الله بن خرداذبه على جميع هذه الاسئلة ، وحلح عليه الخليفة وعلى من حصره من قدمائه وبدأ الممكرون العرب يدركون تلك الصلة الوثيقة القائمة بين الشعر والموسيقى ، هذه الصلة التي ترتد الى ابعاد اغوار التاريخ ، وقد ذهب صاحب العقد المربد الى القول (ان العرب جعلت الشعر موروثا لد الصوت فيه والبدنة) .

والفت في هذا العصر كتب متعددة الالوان ، الفت كتب المقارنة بين المطربين ، نظير كتاب (الفرق بين ابراهيم المهدي واسحق الموصلي في الغناء) لابن الحسن علي بن هرون ، وكتب عن طغيات المطربين مثل كتاب (طغيات المعين لابن ايوب المديني) وكتب عن فلسفة الموسيقى مثل كتاب (شرح السماع) وكتاب (الموسيقى) وكتاب (الايقاعات) للمرابري ، وكتب (مقالة في الموسيقى) لثابت قره وكتاب (الموسيقى الكبير) و (الموسيقى الصغير) لعبد بن مروان وما يقال عن هؤلاء يقل عن الكندي وابن سينا والشيرازي .

لقد أصبح المواطن العربي العباسي ، ينظر الى الموسيقى نظره الى شيء له قيمته العسكرية ، فكما ان العامة في نظر الفرس كان اداة ، وفي نظر الروم فلسفة . كما يقول الجاحظ ، فقد عد العرب الموسيقى عمارا ، وصفها بذلك ابن خلدون في مقدمته حينما تحدث عن الموسيقى ، اما اخوان الصفا فقد علمت عليهم النزعة العنصرية ، حينما تحدثوا عن الموسيقى ، فقد كانوا يعتقدون بان (فيثاغورس استخرج بصفاء جوهر نفسه وذكاه قلبه اصول الموسيقى وسميات الافلاك والكواكب) ومما يمكن الامر فقد نحت الموسيقى في العصر العباسي ، معنى جديدا في الشكل والمحتوي .



مجالس الغناء

كانت مجالس الغناء في العصر العباسي ، عامة في العظمة والروعة والجمال ، كانت هذه المجالس تعد اعداداً خاصاً ، سواء أ كان ذلك في قصور الخلفاء ام دور الامراء ام منازل الشرفاء ، ففي قصور الخلفاء كانت مجالس الغناء ، تتصوّر باربع الطيوب ، وتعبق بالبخور والند ، والرياحين منورة بها ، وهناك ، والخليفة فوق اريكة وثيرة ، وفوق رأسه جارية تدب عنه وتروحه ، ومن وراء ستارة يجلس المطربون والمطربات ، والمعزّون والمعنّيات ، وقد ارتدوا الالبسة المصنّفة وأخذوا مراتهم حسب مؤهلاتهم ، فمن ضارب على عود وطبور ودف وزامر ، وأمام هذه الستارة موظف خاص ، يطلق عليه اسم صاحب الستارة ، يقوم بمهمة تليغ الفرقة الموسيقية ، ما يقترحه الخليفة من أعان وأنشيد ، فدا فرغ الخليفة من الطعام ، رفعت الموائد ، وحيى شراب افرغ في كؤوس لطيفة رشيقة ، ودارت به جوارى ثياب رفاق ، نشف عن مديح حلابة ومحاسن رائعة ، وعلى فوجات الانعام ، كانت الاقداح تتوافض على الشعرة ذات البين وذات الشهل ، تراقص الانعام المناسبة في تلك الاحواء المسحورة ، وكان الخليفة ، اذا ما هرته نشوة الطرب واستحسن صوت من تلك الاصوات المصعّدة ، امر صاحب الستارة ، باعادة الصوت ، فعاد الصوت ليردد من جديد ، ليردد في دلك الافق السادر في نشوة الحجر وأرج الزهر . ولكن الستارة التي قامت بين الخليفة والمعزّين والمعنّيات لم تعمر طويلاً ، فقد امتدت اليها يد الزمن ، انحسر ها شئت فشيئاً ، فنوسد الحمر العذري ذراع الماضي ، ليام في غياهبه ، وهصر عبق لابعام وامدام ، تلك الستارة ، هصرها الى الابد ، بعد ان ظلت قائمة زمناً طويلاً ، كرس من رموز الوقار . كان السفاح اذا ما طرب قال للمعني من وراء الستارة (احسنت والله . أعد هذا

(الصوت) ، ويبقى المغني وراء السترة لا يزال ولا يوحه ، وكان الخليفة المهدي ، يحظر على المعينين الشراب ، فقد صرب وسجن ابراهيم الموصللي لانه شرب ، وكانت مجالس الغناء ، مجالس مهذبة ، وذبة . روى الجاحظ في كتابه احلاق الملوكة (وكان اذا ارتفع صوت الخليفة وراء المنارة هل صاحب السترة حسبك يا جارية كفي . انتهى . انصري . يوم السدما ان القدر لذلك ، بعض الجوارى) . ولكن هذا الادب المذهب الذي رافق مجالس الخفاء ، ما لبث ان تبدد وتلاشى ، فقد صار الخليفة ، لا يتورع عن الجلوس الى لمعي والنعث اليه ، بعد رفع الستارة بينه وبينه ، كما فعل الرشيد مع لمعي مسكين ، كما هو الخليفة يقبل رأس المعنى ، اد طرب و عرق في اطرب ، كما فعل ذلك الخليفة لأمين مع اسحق الموصللي ، وصار المعنى يدخل على الخليفة وهو شوان ، كما فعل ذلك غلوبة مع المأمون . فقد دخل عليه وهو يرقص من اقصى الايوان وبصفق ويعني :

عديري من الانسان لا ان جعونه صغاني ولا ان صرت طوع يديه
وفي لمشق الى ظلم صاحب يورق ويصمو ان كدورت عليه

وصار الخليفة يقضي ليلة كاملة مع لمعي ، فقد روى صاحب تاريخ بغداد : ان محارق شرب مع المعتصم ليلة الى الصبح ، كما صار الخليفة ومن يلود بالخليفة ، لا يابه محرمة الخلافة في مجالس الغناء ، روى ابن حمدون ، عن اسحق بن ابراهيم الموصللي عند تنوكل في آخر ايامه ، مما بقي علام من العمان الوفوف ، الا وجدته يرقص طربا وهو لا يعلم بما يفعل (وانتهى لطاف بالخليفة الواثق بالله ، الى ان مات يقضي الليالي الطول الى جانب المعين والمعينات ، وربما رعد في موضعه لا يزاله . وكان الغناء في هذه المجالس الخفية ، وقر المباح وزرع المعنى ، على صور متباينة واشكال مختلفة ، فاما ان يكون فرديا مطلق ، ترافقه آلة أو آلات موسيقية ، أو فرديا متروكا ، بيد لمعي الاول ، بشد لحن معين من بحر شعري معين وقافية معينة ، فيأتي المعنى الشبي ، فيشد قطعة ، من نفس اللحن ونفس البحر الشعري ، ونفس القافية ، ويعمل الثالث كما فعل الشبي والاول ، كما جرى ذلك للمعنى لمشدود وزين وديس .

فقد غنى الاول قصيدة جاء في مطلعها .

شفتت جبني عليك شقا وما لجبي اردت شقا
فغني الثاني :

قد دت شوقا ومت عشقا يا زفرات المحب وفقا
ثم غنى الثالث :

طاشت شوق وبجر عشقي يفيض عذبا ولست اسقى
واما ان يكون الماء مشتركا ، بحيث يعني حرفة كاملة بين يدي الخليفة ، فقد
غنت امام المأمون ، حرفة مؤلفة من عشرين فية وعشرين آلة .

ولم تكن محالس العناء مقتصرة على الاعاني الصوتية فحسب ، بل كانت لاتخلو
من عرف أيضا ، وكانت هناك محالس عناء مقتصرة على العرف الآلي ، يضرب
بها المطربون على العود والطنبور والدف و الزمر ، وما الى ذلك من آلات موسيقية .
الى جانب القصور ، كانت البساتين ، هذه البساتين المترامية الاطراف ،
البساتين التي جعلت من بغداد حلة الارض الموعودة ، ففي طلال اشجارها
الوارفة ، كانت تقام الحفلات العنائية ، لاسيما في ايام الشعابن ، فقد روت
كتب التاريخ ان احمد بن صدقة ، غنى بين يدي المأمون ، وكانت هناك عشرون
جارية رومية مزينة بالدباج وفي اعناقهن صلفا من الذهب ، وفي ايديهن الخوص
والريتون ، وقد رفضت هذه الوصائف باواع الرقص من (الدسبندا) و (الابللي)
وكان على المعنى قبل ان يشخص الى مجلس الخليفة ، سواء اكان ذلك في القصر
أم في البستان ، ان يمضي الى غرفة تصنع فيها الملامي ، حيث توجد آلات الطرب
(فيصلح المطرب الآلة حتى لا يحتاج الى اصلاحها او تغييرها عند الطرب) وكان
على المعنى او المعنبة ، ان يختار الاغاني التي تتحارب مع الوسط الذي يغني فيه ،
كان على المعنى او المعنبة ان يختار القطع العنائية الارستقراطية ، لا القطع الغنائية
العامة الشعبية ، فبما اذا اراد العناء في مجلس من محالس الخفاء ، فقد كان الخدمة
ينشد من المعنى او المعنبة ، السمو بالنعن الى الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه
الخليفة ، فقد اسكر هرون الرشيد ، على ابن صدقة غناءه ، حينما اشد بين
يديه : غناء الملاحين والبنايين والسقائين .

وقد كان من جراء طبع الغناء العربي بالطابع الاستقرائي، ان فقد تاريخ الموسيقى العربية، معالم الموسيقى الشعبية، فكتب التاريخ والادب والسير، لا نحدثنا عن معين ومعبت، وقفوا هم الغنائي على الغناء الشعبي، كما أن كتب التاريخ والادب والسير، لا ترد لنا شيئا من كمات هؤلاء المعين والمعنيت، فنحن نعرف ابراهيم الموصلي، وابراهيم بن المهدي، وابن جامع ودانير... ونطالع حياة واخبار هذا الرعط من الفديين في مختلف ما نحدثنا البنا من تراث أدبي، ولكننا لا نعرف شيئا، لا عن حياة ولا عن اقوال اولئك الذين ندرؤا هم للشعب، هؤلاء الذين وهوا حياتهم للفن، وكأولاه، لا يرقون الى قصور الخفاء، ولا يترقون دور الامراء، عاش هؤلاء وماوا، دون ان يحيط بما يضطرب في قلوبهم ويحيث في صدورهم، فنحن نعرف بذلك الى ديبا الشعب في ذلك الزمن، الى افراحه وأتراحه.

الى جانب مجالس الخفاء، كانت هناك مجالس خاصة بالامراء والاشراف، وأصحاب القيان، والموسرين من انشاء الشعب، مجالس لم تكن لها روعة مجالس الخفاء ولا عظمتها ولا سلاها، ولكنها كانت اوفر متعة، لانها كانت اوفر ساطة، ومن هذه البساطة ابنتى عمر جملها ورض، كان ارباب هذه المجالس، لا يقبلون انهم بما ينقيد به الخفاء، من وفور مصطنع، وتقاليده وعنعنات وما الى ذلك من الشؤون التي يستدعيها سلطان الخلافة، في هذه المجالس يتبعى الوفاق عن كبريائه في صمت، ويحصى لبس في راية قصبة مهمة، فبأحد مكانه انطلاق مرح، فيه رهوة وفيه فتوة، فلا سنا ولا صاحب سترة، تبرز القبة وقد تلمعت بظلاله رقيقة، وترقص الحواري، وتدور الافداح، فمن جوار في ثياب نوان، ومن جوار في ثياب علان، وصف ابو عيسى البعدي مجلسا من مجالس ابي عيسى المتوكل فقال: (وجيء بالشراب، ودمت جارية تسقى شرابا، ما ريت احسن منه في كأس لا أقدر على وصفها) وما يقال عن مجلس ابي عيسى، يقال عن مجالس غيره من امراء ذلك العصر، فقد كان الامراء يعيشون حياتهم، ويتذوقونها فطرة فطرة، لا يدعون مائجة ثمر، دون ان يتمتعوا بها وينعموا باسمائها. كان ابراهيم بن المهدي، وأخته علية بنت المهدي، وأخوه يعقوب

بن المهدي ؛ وكان هذا من احدى الناس في الزمر - مجتمعون ويعنون ؛ واحد يعزف وآخر يفني وثالث يزمر .

اما محاسن سرودت الناس ، هؤلاء الذين يمثلون الوسيط الاجتماعي الراقي ، فقد وصفها ابراهيم بن المهدي ، في معمره من معمراته ، حيث قال : (وحيي بالهاء ففعلت ابديا ، ثم فقت في محسن للمدمنة ، فدا شكل مليح ما رأيت احسن منه ولا أطرف ، ورأيت صاحب مكان ينلطف بي ، وبقين علي ، لظنه اني ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه ، في ثوبا ، فخرجت عليه جارية ، كأنها غصن بان ، في عاية لطرف وحسن امينة ، قامت من غير خجل ولا احتشام ، واتي بعود فجهته أحسن جس ، ودا هي حذقة في الصاعة ، وعنت نقول :

نوهما فكري فضيع حده وفيه مكان الوم من بطري أثر
وصافها كمي فدام كمي من صم كمي في اناملها عقر

ووصف اعني بحرق ، محسنا من محسن هذا الوسيط الاجتماعي فقل . (وخرجت جارية وراءها وصيفة تحمل عود ، فوصفت في حجرها ، فعتت وشربوا وطربوا) وقل صاحب اعلام الناس (ومدوا السباط وأكبروا ، ورفعوا الحوان ولأبديهم غسلوا ، واحصرت آله المدموم ووصعت الطمست والقاني) واصاف (فمصبت الحادم الكرسي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس المصاحية ، وبدها عود من صنعة اعمود ، ورشدة وحبت اليه ، بعد ان ضربت اربعة وعشرين طريقة عليه) ، اما دور اصحاب القيان ، فقد كان بثنة بدوة ، بفشاها الشباب ، الذي لام له الا اقتناص اللذات ، والاحتع بسررات ، وفصل بين ثمة فداصة بالرغبة ، مثالفة بالاحلام ، في هذه المجالس كان المرح يرتقي على كل شيء ، فينبجلي الطرف في احمل معانيه ، وتطلق الموادر ، حرة كالسيم ، يروى العتي ان شخصا حصر مجلسا من مجالس العدا ، فلما عنك الطرب ، دلف الى القبة وقال لها : جعل الله كل حسنة لي ، لك ، وكل سيئة عديك عني ، فشكرته القية ، واثنت عليه ، فما كان من رمله الا ان نهض وقل للقبة . ان هذا الشيخ ماله حسنة واحدة يهبها لك ، ولا عليك سيئة واحدة يحملها عنك ، فلاي شيء تحمديه ؟

وروى ان اباواس حضر مجلسا من مجالس الطرب ، فقالت له القيان ليتنا

بناتك ؟ فقال ابو النواس ونحن على دين الخوسية .

يمثل هذه الطرف كانت مجالس العناء تعق وتعوج ، فقد كان الطرف من مستلزمات هذه المجالس كان يجزرها وبدد ، كما كان عطرها وزهرها .

وكان الرجل ، يذهب بفيسته ، او اكاك لديه قيمة ، الى دار صديقه فيقصي سهرته ، كان يفعل ذلك دون ان نساوره غيره او ربة ، فقد كانت الحياة الاجتماعية في ذلك الزمن ، اوسع افقا على ما يظهر ، منها لدى احفاد اوائك الرجل . وفي ليالي الصيف ، ليالي بعدد القمر ، كانت الحرافات تنساب آتمة مصممة فوق نهر دجله ، تنساب انسياب احلام الفتوة ، لطيفة رشيقة متوجة ، تنساب وهي تحمل معها عالما فنيا حافلا ، عالما يزخر بالالوان والانعم . فقد كان الاجداد بقصوت على هذه الحرافات ، اجمل مجالس العناء ، من ذا الذي لم تأخذه عن نفسه شوة معنعة وهو يستمع الى شهراد وهي تتحدث في الف ليلة وليلة ؟

من ذا الذي لم يستهوه السندباد البحري ومعروف السكافي ، وذلك الحاتم ، خاتم المارء ؟ بلى من ذا الذي لم تستهوه كل هذه الاشياء الجذابة الاحادة ؟

لقد تعجرت هذه الاضواء من يسوع حقيقة استمدت عناصر وجودها من واقع حي ، وهذا الواقع الذي غلبت عليه تصورات الروم ، هو مجالس القدامى في غنائمهم ، وطربهم ولهموم .

وصف عبد الله بن الممتز مجلها من مجالس محمد الامين فقل . بني المجدوع محمد الامين ، مجلس لم تر العرب والعجم مثله ، فسرد صور فيه كل التصاوير ، وذهب سقعه وحيطانه وابوابه ، وعلقت على ابوابه ستور معصرة مدهبة وفرش مثل ذلك من الفرش ، فلما فرغ من جميع اسبابه ، وعرف ذلك ، احذر لدخوله يوما ، وتقدم بان يؤمر الدماء والشعراء بالصور عدوة ذلك اليوم ، ليصطحبوا معه فيه ، ففعلوا ، فلم يتحلف احد ، فدخلوا فراوا شينا لم يروا مثله قط ، ولم يسمعوا به ، من ابواب مشرف فافع فاصح ، يسافر فيه النصر ، وجهل كالبيضة بياضا ، ثم ذهب بالابريز ، الخائف ييه بالارورد ، له ابواب عظام ومصاريع علاظ تتلأأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رؤوسها بالجوهر القديس ، وقد فرش بفرش كأنه صبغ الدم ، منقش بتصاوير الذهب ، وغنائيل العقبان ، وصد فيه

الغنى الاشهب ، والكافور المصعد ، وعصى المسك ، وصوف العاكبة والشهامة
 والترايين . فدعوا له واتوا عليه واحذوا مجالسهم على مراتبهم عنده ومنزلتهم
 منه ، ثم قبل عليهم غدا . اى احسنت ان قرع متعة هذا المجلس معكم واصطبح
 فيه بكم ، وقد ترون حصة ، فلا تمنعوا ذلك بالكلف ولا تكثروا سروري
 بالسهو ، ولكن ابطوا ونجدوا وتبدلوا بما العيش الا في ذلك . . . ثم لما طمئنا
 اتى بالشراب ، كانه الرعمران اصفى من وصال المعشوق واطيب ربحا من نسيم
 المحبوب ، وقمصة كالدرر بكزوس كالبحوم ، فطعموا عليهم ، وعملت الجواري
 من خلف الستائر اهرها ، فشربوا ، من صدرهم الى آخره ، في مذاكرة
 كقطع الريح ، وشبه كادر المعصن المقيان ، وسماع بحبي الفوس ويزيد في
 الاعمار ، فله كان آخر اشهار ، دعا عشرة آلاف دينار في صواني ، فأمر فنثرت
 عليهم ، فانتهموها والشرب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف
 والمروح ، وليس يمع احد منهم مما يريد ولا يكره على ما ياباه .



حياة الفنان

كانت حياة الفنان في العصر العباسي ، حافلة بالحوادث وراحرة بالمعاجات ، فقد كانت هذه الحياة عرضة لبرقع والحفص ، والبدر والعقر ، والسعادة والشقاء ، تنفي آمنة مطمئنة في حين ، وعصبة صاحبة في حين آخر ، ومهما يكن الامر ، فقد عاش الفنان في العصر العباسي حياة ، وكان معظمه - ولاء المدين من أبناء الشعب ، من ابناء الطبقة التي تؤلف مادة الدريع الاولى ، وقد استطاع فريق كبير منهم ، بفصل عنه الملهم ، التجهيق الى سبي الآفاق ، او توصل ابداعه ، الى قصور الخلفاء ودور الامراء ومنازل الشرفاء ، ونعموا بمكانة لم يتمتع بها غيرهم من رجل ذلك العصر ، فقد روى ان الخليفة المعتصم ، اجلس المغني اسحق المصلي امام سريره في مجلس من مجالسه العامة ، كما روى ان الخليفة المتوكل كتب في احضار هذا المغني ، لما عم بانه قد كذب وانه في منزله ببغداد ، فلما دخل عليه الفنان الكبير وضعه الخليفة واجلسه قدام السرير ، وكان الخليفة يقطع المطرب والمغني القرى ، ويعطي المنارل ، كما فعل الرشيد مع محرق ، ويعقد الالوف المؤلفة من الدنانير على الفنانين المبدعين ، فقد روى ان موسى الهادي ، اعطى ابراهيم مدي وخسين الف دينار في ليلة واحدة ، فقال ابن المطرب : ولو عاش الهادي لطينا جدران دورنا بالذهب والفضة ، وبلغت هبات الخلفاء للمدين والمطربين ، حدا لا يدايه حد ، ودرجة لا تصارعها درجة ، حتى ان الفنانين انفسهم استكثروا على انفسهم هذه الجوائز الصخمة ، ففي مجلس من مجالس الامين قال المطرب اسحق الموصلي للخليفة : لقد اجرتني الى هذه العاية بعشرين الف الف درهم ، فقال الامين : (وهل ذاك الاخراج بعض الكور ؟

يثل هذا اجاب الخليفة المعني الذي اوقرت جيبه الجورث وملأت بيته الهبات ، وكان من جراء هذا كله ان راح الشعب يتساءل من اين هؤلاء المدين هذه الاموال ؟ قال ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار : (قدم ابن جامع مكة بخير كثير ، فقال

ابن عيينه علام تعطيه المئوك هذه الامول وبجيونه هذا الجاه ؟ وما يقال عن ابن
جامع يقال عن غيره من المعين والمطربين ، فقد وجد الخلفاء والامراء والاشراف
في المسابح ، مدى معرفتهم ، مدى لذة العراغ ارحب ، من اوقات العبث ، وكان
هؤلاء السادة يسمون بحياة طيبة حرة راحة ، ففتحوا القصور والدور للفنانين ،
ليصعدوا على حياتهم ، مدعى جديدة ، بتلاشي الواقع معها في تهاويل الخيال ، كانوا
يلهون بالزمن ، لا يفكرون لاداساعه التي هم فيها ، يعيشون في لحظة واحدة ،
كما لو اهم يعيشون الابد ، ولكن هذه اللعبة السبعة التي احبها رجال الحكم على
المعين والمطربين ، لم تكن ابدا الاستمرار دائمة الاطراد ، فقد كانت حياة كل
فنان ، معلقة على اهواء عائرة وتزوات عارضة ، كانت حياته عرصة لادى مفاجئ ،
ينبعث في صدر الخليفة او الامير او الشريف ، لا شيء ، بل لان احد الوزراء
او الامراء او الشرفاء ، تقم عليه ، ووغر صدر الخليفة ضده ، فصرى ، واهين ،
وجر من رجله ، فقد تقم الوزير الفصل بن الربيع على المعنى «علوبة» فحصى الامين
عليه ، لما كان من الخليفة الا ان امر بجلده حسين سوط ، او لان احد الخساء
وسوس للخليفة ما وسوس ، فد بالخليفة بعرض عن الفنان ، واذا لاس يجارون
الخليفة في هذا الاعراض ، فلا صديق ولا سبور . سأل المأمون ذات مرة عن المعنى
اسحق الموصلى ، فقال عنه احد حساده انه رجل يتبه على الخالفة ، فصرف الخليفة
وجهه عن المعنى ، فد بالديبا كلها تصرف عنه وجهها ، او لان الفنان لم يأخذ
باسباب ، بحالسة الموكية ، هذه المجالسة التي تتطلب من كل فنان الاحتفاظ بوقره ،
في مجلس تدور فيه اوطال الشراب ، فقد عرند المعنى محمد الرافى ، في حضرة
الرشد لما كان من خليفه الا ان طرده ومعه من الدحول عليه وناساه . وكانت
للنسان تزواته ، تزواته الخاصة التي يستند منها وجهه والهامه ، وكان بعض الخلفاء
ينكر على هؤلاء العديين هذه التزوات ، واذا ما استجاب الفنان الى ما يجيش في
صدره ، كان يصيبه العذاب والحربان والسجن ، فقد حطرت المهدي على المعنى ابراهيم
الموصلى الشراب ، وما كان في مقدور الفنان الاصباح لهذا الامر ، اذ كانت الخيرة
تنساب في عروقه اسباب دماثة ، كان كعويا ، وكان الشراب يباديه في حاله
وتوحياله ، فلما اكراهه الخليفة على الاحد ما لا طرفة له به ، تخطى القيد وجاور

الامر ، وكان نصيبه الحسن .

هكذا كان حظ بعض الصناديق المقربين من الخلفاء والوزراء والاشراف ،
اولئك الذين بسمهم الحظ ففقدوا ناسا لوديع والخير الكثير . اما اولئك
الذين لا حظ لهم من درهم ، فقد عاشوا حياتهم يشحسون بابصارهم الى الاضواء
لثألقة ، دون ان يحطوا بصيب من مباح هذه الاضواء . هم اباء تلك (الخطيرة
القدرية التي زجت فيهم ، اما حواء اجدادهم) كما يقول (بلاسكو ايبينز) ، لقد
كانت اللعنة الابدية تلاحقهم ، في نومهم وحين اقاموا ، وكان المجردون منهم اذا
طعموا بغنيمة ، خرج عليهم الاعراب وقتلهم ، كما حدث للعبي محمد صدقة . اما
الغنان الذي عاش في بحيرة من نعمة امير وصفيحة وزير ، فقد عاش في جحيم حسد
مريب ، حسد ايقظته اناية حياء ، اناية كانت مصدر انداع الفن كما كانت مصدر
سكية الصناديق ، فقد دفع هذا لحسد الغنان ، لينال من حبه ، املا منه بالتفرد
مخطوطة والاستثنائية ، لم يكن هذا التماس فيا بقدر ما كان شخصا ، كان لكل
وان كبير عصبة من الصناديق تنطوي تحت رايته وتعمل بشارته ، كان هذا الغنان
كبير يمد السبل للجماعة حتى يظفر افرادها وهو فقط من جوائز الخلفاء والامراء
بدافع عنهم ويأيدهم ، كما يدافعون عنه ويؤيدونه ، يشيد بهمهم وبدكرهم ، كما
يشيدون بدكرهم واسمهم ، كان اسحق الموصلي يناصر عبودية صد محروق ، كما كان
عمرو بن بانه يتعصب لابراهيم بن المهدي ، ويتحامل على اسحق الموصلي ، اما النزاع
بين كبير المعنيتين ، بطير النزاع الذي حدث بين ابراهيم الموصلي وابن جامع ، فقد
كان من العفء مكان عظيم . ولعل اخطر مظهره وارعب اشكاله ، ذاك النزاع
الذي كان يقوم بين فساد يتنسب للبيت ادك ، وآخر يتنسب لطبقة الشعب ، كان
الزراع بن الطرفين ، رهيبا مبيدا ، بالنظر لعدم تكافؤ السلاح ، ولعل اظهر صورة
من صورته ، ذاك الزرع الذي قام بين ابراهيم بن المهدي واسحق الموصلي ، كان
الاول ابن خيفة وشقيق حليلة ، مارس العساء لا للكسب كما يقول ، بل لعدة
معنوية ومتعة روحية ، وكان الثاني من اولئك الذين مارسوا العساء لا ليحققوا رغبة
وفنية فحسب بل ليعيشوا ابصا ، فقد كان الغناء مادة ورقهم وحديل معاشهم ، كانوا
يحترقون العساء ليؤمنوا قوتهم اليومي ، فطرقوا ابواب الخلفاء والامراء والشرفاء ،

ليعيشوا على موائد افرام الناس ، لا على موائد ابراهيم انفسهم ، ودعوا الى مجالس ما كان لهم باصحاب صلة من الصلات ، اللهم الا صلة الجائزة التي يرقبونها والهبة التي ينظرونها ، لقد كانوا بؤساء حقاً ، عوا ليعبرهم في الوقت الذي لا يجيش في صدورهم عاء ، وعرفوا جلاهم في الوقت الذي لا تساورهم رغبة في عرف ، وحتى يوقظوا عاطفتهم القمية ، كانوا يؤججوها بالشراب ، واد ما اسرفوا في الطلب ، لامهم الناس ، ولم يخ احدهم من تزيير ، لام الناس حين الطيري على اخذه المال الكثير ، فكان جوابه . واما هي اعاصي افسس بين الناس ، افلموسني ان اغلي بها الثمن ؟ ، بوعده ابراهيم بن المهدي المدن اسحق الموصلبي ، ولولا الرشيد ، ولولا ان الخليفة اسبل حمايته على المدن ، مات اسحق وهوى عليه ، دون ان يعلم كيف قتل وكيف مات . فقد عى اسحق الموصلبي بين يدي الرشيد ، فقال له ابراهيم بن المهدي ما اصبحت يا اسحق ولا احسنت ، فداورت اسحق فزاة المدن ، فقال لابراهيم ليس هذا بما نعرفه ونحسه ، وهذا ثارت كبريه ابراهيم فصاح بالفسان : التجترى وتقول ما قلت ... ؟

وخاف اسحق ، خاف العنان نعمة ابراهيم ، وانتقم ابراهيم ، فعمد الى المراوغة لينقذ نفسه فقال :

أنت تشتمني ، ولا اقدر على اجاسك ، وانت ابن خليفة واخو خليفة ، ولولا ذلك لقلت لك ما قلت لي ...

وبالرغم من هذه المراوغة السريعة ، فقد ظل الجرع مائلاً امام عينيه ، فاصغى على النزاع الشخصي ، شكلاً سياسياً ، شكلاً يتصل بالخلافة وامور الخلافة . وهكذا انقذ العنان نفسه ، ومع هذا كله ، فقد انخم الرشيد على العنان باللائمة وقال له ! لو ضربك ابراهيم ، اكنت احتص له منك ، وضربه وهو اخي يا جاهل ؟ اتراه لو امر غلماناه فقتلوك اكنت اقتلك به !

هكذا كانت حياة العنان في العصر العباسي ، حياة غريبة عجيبة ، مليئة بالمتناقضات ، رجل من طبقة الشعب يسمو به منه الى رفع المراتب ، الى مجالس الخلفاء والامراء والشرفاء ، ثم يزوم بتقليد وعادات ، لا عهد له بها من قبل ، فاذا ما تجاوز هذه العادات وتلك التقاليد ، ضرب وأهين ، يناعسه في مه امير من امراء البيت المالكة ،

رثاثر عليه وزير ، ويحضر الخلفاء عليه حامد ، ويطلب اليه ان يكون الكوكب
 لما تقي في ذلك الفلك ، ويطلب اليه ان يكون الشعلة المضيئة في تلك الدواليب
 لمعنة القافة ، من دنيا رجال الدولة . يأخذون منه اكثر مما يعطونه ، ويسلبونه
 كثر مما يمنحونه ، دون ان يراعوا طبيعة روحه العبية ، هذه الطبيعة المرفقة ، صناعه
 ارساوس والاوهام ، حكم من فنان قصي عليه ، لانه ثار وغرد على اوائك الذين
 تفرحون عليه اعية من الاغاني ، كان (وجه القرعة) اذا شئ العناء اياه ، وكان
 اس ينكرونها عليه هذا الاء ، وفقد ذهبت كرامة الفن بحياة احد الفنانين ، لانه
 فص اعادة الصوت ، ذهب هذا الرقص بحبانه لانه كان محلا لطبيعته النفسية
 "مية ، هذه الطبيعة التي لا يمكن ان تحصى لفائيس ومفاهيم ، ذلك لان شذوذها ،
 "و من نبوعها ، ترى لو قد مدت هذه الطبيعة الخاصة ، كيف ينسى ها ان تمتنع
 "او جود ، ادوع ما تتحلى به معاني الوجود ؟

الى جانب هذا كله ، الى جانب هذه المآلي الامتياحية ، فقد كان العناء في عرف
 حال العصر العباسي سبة تلحق بمعترفها ، وتثرل بصاحبها ، ان الحو الارستقراطي
 سي كان ينعم بياهج الفن ، كان ينظر الى الفنان طرة لا تتعلق ورسائل العبية
 لحقة ، كان الفن في عرف هذا الحو ، منعة لا غاية لها الا المتعة ، اما ان الفن رسالة
 عبر بها الانسان عن التطور اللانها في الحضرة ، فهذا شي . لم يدر بخلد اولئك الذين
 "وا يسبحون في اجواء العناء ، كان الفن في عرقهم ، مهنة لا يراونها الا اباء الطبيعة
 "ديا من مجتمع ذاك العصر ، اما حرفة الموالى ، ولا يسوع في حال من الاحوال
 " يتدنى اباء الصفة الارستقراطية ، الى مشاركة اباء الاغوار السفلى ، فيما
 رسون من صنعة ، يتكسبون بها ويعيشون ، فقد روى ان جد العبد عبد الله بن
 "عباس ، قال لطفيده حينما علم انه دخل في عداد المعين والمطربين " لقد فضحت
 "ك في قبورهم ، ، هذا وعبد الله لم يارس العناء ، شعده منه بالعناء ، بل لانه كان
 روى جارية من جوارى جدته ، وما كان في مقدوره الاتصال بها فيما اذا لم يتذرع
 حيلة ، وكانت هذه الحيلة ، تعم العناء ، والعناء سبة وهوان ، لا يخلق بالرحل
 "دي يتمتع بمكاة ما ، مراولته ، ولا يجدر بالرحل الذي يت بأصرة النسب الى بيت
 رفيع ان يعتد به ويأخذ بأسبابه ، ذلك لان الفن اهية ، غايته لا يمدو العبت العابر ،

لا التعبير عن حاجة من حاجات المجتمع الانساني .

هكذا عاش الفنان في العصر المماليكي ، عاش حياة مليئة بالتناقضات زاهرة بالمفاجآت ، عاش المحوود في بيم سلطان وارف ، يجود عليه الخيفة او الامير او الشريف ، جهات جلت عن الوصف ، وجرائر دفت عن التعبير ، كان العمان المجذوء ، يعيش في عالم يسوح بالرؤى موار بالاحلام ، كان صورة من تلك الصورة الاسطورية المجنحة ، اما لعمان الذي تحطه الخط وخلفه وراه في ببداء الحياة دون ما دليل ، فقد كان نصيبه في دنياه ، لا يختلف شيئا عن نصيب الشعب الذي يعيش بين ظمرائه ، كان هذا الشعب يرفل في اغاب حر ، ان فضااض ، حال لونه ، كما حال لون صاحبه ، كان هذا الشعب فقير امعدما ، لا يجد لديه السقف الذي يأويه ، والمزل الذي بطويه ، فكيف يتسنى للمدن ان يجد لديه الملاذ الامين ؟ كيف ينسى له ان يجد لدى شعب ، كان البؤس غذاه ، ما يقوم بأوده ؟

ان البطون الجباع كانت تشد الحبز ، قبل الماء ، فكان القدن ، الذي لا يجد سبيلا الى باب الخليفة او الامير ، لا يجد سبيلا الى قوت يومه ، وهكذا ارتبطت مقدرات العن وشبه البيئه الارستقراطية ، بمعبر العمان عن افراح و تراخ هذه البيئه . دون ان يعبر عن افراح و تراخ البيئه التي تمت اليها وبجيا بين ظمرائها وكان من جراء هذا كله ، ان طبع العن العصافي في ذلك الزمن ، بطبع العنة الحكيمة ، بالطابع الارستقراطي ، كما كان من جراء هذا كله ، ان بعدت الشقة بين المدن والشعب فلم بعد يجد لاول لدى الك في مداه ، ولا الثاني لدى الاول صده .



حياة القبان

كانت تجارة الرقيق ، تجارة شائعة ونجحة في العصر العباسي ، يؤتى بالحارية لرومية او العارسية او التركية او الهندية ... الى سوق النخاسة ، فتباع كما تباع السلع ، ثم يصار الى اعدادها اعداداً خاصاً ، اذا كانت صالحة للامانة ، في دار رجل يطلق عليه اسم المقين ، وقد حدثتنا كتب التاريخ والسير والادب عن عدد من هؤلاء الرجال ، مثل ابن رامين ويحيى بن عيسى وغيرهما .

كان المقين يدفع الجارية الى امرأة تعرف باسم قيسة القبان ، وكان على هذه القيسة ان تعمد الجارية بالتوبة ، حتى اذا نعتحت براعم هذه الوردة الغضة ، علمت في الشجر وايقاعه ، وبسيطة ومجرهه ، واصبعه ونجرتها ، واقدمه ومخرج نغمه ، ومواضع تقاطعه ، ومقادير ادواره واورداه ، وكان على الحارية التي قدر لها ان تمارس صنعة الفناء ، الا تم بهذه الاشياء فحسب ، بل كان عليها ايضاً ، ان تتقن فنوناً لتجميل والمعاشرة والمجالسة ، حتى المجون وامتك ، كان على الجارية الممينة ، ان تكون امرأة كاملة الانوثة ، امرأة تعرف كيف ترمي فننصمي ، امرأة حيلة في كل شيء ، في الصوت والجسد ولم يك جمال الحسد قبل ابراهيم الموصلي متطلباً مسقن للمعنية ، فلما جاء ابراهيم الموصلي ، حطم هذه القاعدة القديمة ، القاعدة التي كانت تهدف الى تجنب الفجوة الساهرة ، فاختر الجيلات من الجواني ، وراح يمدنهم فصور الخلفاء ودور الامراء ومازل الشرفاء ، ولم تتقن القيسة في هذا الزمن الفناء وحده ، بل اتقت الضرب على العود والطبوس ، وما الى ذلك من الالات التي كانت شائعة في ذلك الزمن ، وهكذا نزلت القيسة الى الميدان ، وهي مزودة بفنونة الوجه وفنونة الصوت معا ، وكان من جراء هذا لاعداد المتقن ، ان ارتفعت اسعار الجواني الممينات ، حتى بلغت عشرات الوف الدنانير ، فقد روي ان الخليفة موسى الهادي اشترى المعينة (عادية) بعشرة آلاف دينار ، كما اشترى الخليفة

الواقف بالله المغنية (قلم الصالحة) عشرة آلاف دينار ايضا ، وتذهب بعض الروايات الى القول بان هارون الرشيد اشترى جارية مقيمة ، بستت وثلاثين الف دينار . وكان الخليفة دسيع دسم قينة طلب استدعائها اليه ، حتى اد مثلت بين يديه ، ولاقت منه محلا وقبولا ، اشتراها أو أعزى الى احد ابياعه بشرائها ، وقد يشترى الخليفة نفسه ، ويهبها الى احد رجاله ، ليصفي الى غنائها بين القينة والقينة ، كلها تافت نفسه اليها ، كما حدث للمعبية (ذات الحال) وقد يبلغ الامر ببعض الخلفاء ، الى اخذ مقيمة احد اتعه ، ثم يهبها الى غير صاحبها الاول ، كما حدث للمغنية (بذل) . وما يقال عن الخلاء يقال عن الامراء ، وقد يهبه في كتاب علام الناس ، ان صمرة بن المعيرة ، احد امراء البصرة بعث بهدايا الى قينة فدرت بثلاثين الف دينار ، وان يزيد بن عون العسادي مع القينة سلامة الرقاة لؤلؤة بعثها بثلاثين الف درهم .

ان فداحة اثن الجوارى المعيبات ، تعطينا صورة واضحة ، عما كانت عليه احارة المغنية في الزمن العباسي من فتنه ، فقد وصفت المغنية (عريب) انها كانت مقيمة محنة وشاعرة صالحة للشعر ، وكانت ملبية الحفظ والمذهب في الكلام والظرف ، وحسن الصورة والرواية للشعر ولادب والملاحة والمهاجبة ،

كما وصفت « محبوبة » بام « تحسن ما يحسنه من علماء الناس ، وقد فتحت المواهب القبية التي تحلى بها بعض القبان ، ابواب منازل ما كان يدور في خلد انسان انها ستفتح من ، فقد حسن موقع لمعبية محبوبة لدى الخليفة المتوكل ، بحيث انها حلت من قلبه محلا حليلا ، لم يكن احد بعدد عنده ، كما يقول علي بن الجهم ، وتزوج عدد من قواد الدولة معيبات ، كمن لا يتورعون عن التودد الى كل من يواهن ، كما حدث ذلك للمغنية (دقاق) . لقد لعبت القبان دورا هاما في تاريخ العرب في العصر العباسي ، كانت القينة الملاد الذي ناوى اليه الخليفة او الامير او الشريف ، في ساعات لهو ومرحه ، حيث اندب نشوة والعمر صبوة ، في مثل هذه الساعات ، لا سلطان الا لسلطان القينة ، ولكن هذه السلطة التي لا مشيئة فوق مشيئتها ، كانت تصدر عن مخلوقة نائسة ثقفة ، وهيت الفن اسمى لمعاني وارفع القيم ، ولكنها كانت في نظر المجتمع ، انسان مثذل ، انها جارية لا تتمتع بالحقوق

التي يتمتع بها الكائن الحي ، نجت من الاقطار الفضية لثبة ، لا أب ولا أم ، ولا
 اخ ولا اخت ، تعيش وحيدة فريدة في تالوت معلق من المشعر المكبوتة ، بينما
 يتراعى للناس ، كما يتراعى لكوكب المشتري ، ام في مجمع لدى تعيش بين
 ظهرايه ، الامل مشود والرحاء المعسود ، غير انها من عمق وحدتها الحس
 الذي شحذه من مرعب ، تطل على الدي في نظرها شعور صارح هوامها ، شعور
 انسان يدرك به متعة عبوة ، وان مدح هذه لمعة مرهونة بعقوبة فيها وروعة
 حاملها ، وان هذه الروعة وثبات العفوية ، ان يكون للسبح صباح متى ولت ورائت ،
 ان عبيها عاقتان دائ ، واسد بالافق ، ترفان المعر الذي يستق ، فتو كص
 امامه المسرات والعتق ، لأوي في فعر ام رة ، هي في كل لحظة ترفب العد ،
 وما يحمل معه العد ، من هرم ومرص وشقا ، وليسى هذه الحقة المرة الجارحة ،
 لتسعى غدها المنعهم المير ، ثلاثى في يومها الحصر ، فتعي الحياة في الحياة ، دون
 ان تدحر شيئا لما بكه المجهول ، مثل هذا المحوق الذي شب في مهد اشعر والنعيم
 وكل ما يجعل الحس مرهم دقة ، محوق لا يؤمن بالحياة ، لا فقد الشعور بالحياة ،
 لماذا ينظر منه الانسان ؟ ينظر غير ذلك ، الحياة ؟ ينظر منه عبي العت
 باقدس الحرات ؟

انه يتهنك ، لان الدين يحنونه بين ادعهم ، ينظفون منه ذلك ، اهم يشدون
 منه خلع العذار وحسر القرب عن الاسرار ، وهو ادعيتك ، انما يحاول تاسمي
 حقيقة مرة ، حقيقة شعوره به متعة عبوة ، راء يحون ، ونه دو الحياة طابمه
 الخاص ومألوف ما يصلح به الناس ، على انه يحون ، لانه يعطي اكثر مما يأخذ ،
 ولانه يعلم حق العم ، بان الذي دفع راء يد ، لا يثبت ان يحرج ابعقه بيد أخرى
 وان هذه العنون التي تحف به من حول وجه وحمل صوت ، هي طلاس سعره ،
 وان هذه الطلاس وشبكة الروح ، رسم في الدوم الذي نولي فيه الى حيث لا تعداد
 سيحطم اولئك العشاق والقيم ، لينعروا من وهم الحطب ، وهم يرددون ما قاله
 توماس هاردي (ان يبالي بحب منك ذا الوعيد) ، ولقدرو هذا المحوق المسكين
 حياة ضائعة .

وماذا عاك تنظر من مخلوقة عاشت حياتها ، بين قوم لا هم لهم الا اعداؤها

ستكون راحة العين ولادن والحس ؟ ماذا عماك تنظر من قبة ينقب الفئ
 واصوله ، اناس لا يقيمون وزنا لاسط امباىء الاخلاقه والقيم الاجتماعيه ؟ يقول
 الجاحظ في رسالة القيان (وانما هي نشأ من لدن مولده الى اران وهاتما بما يمدد
 عن ذكر الله من لهو الحديث وصوف اللهو ولا حانث وبين الخلاء والجنان ومن
 لا يسمع منه كنه جد ولا يرجع منه الى ثقة ولادين ولا صيانة ولا مروءة) وينتهي
 الجاحظ في رسالته الى ابي عبد من هذا الحد ، حينما يتحدث عن اصحاب
 دور القيان ، هؤلاء الذين يتناولون (اجرة المبيت وينامون قبل
 العشاء) ، ان محموقا يشأ مثل تلك المشاة وبشب في مثل هذا الوسط ، لا ينتظر
 منه غير العبث والعمور والغفك ، ان هذا المحموق الذي يحس بانه سلعة تباع في
 اسواق العساة ، لا يمكن ان يكون امينا ، محموظا على عهد حريصا على رد ، كما
 انه لا يمكن ان يكون مثل الطهر والعصف ، ان هذا المخلوق الذي يعيش في
 مثل هذا الواقع الاليم ، ومحس هو ان هذا الواقع لاليم ، يفقد الايمان بشخصيته ،
 وفقدان هذا الايمان ، هو الذي يجعل الحياة في نظره مجردة من كل معنى ، وخالية
 من كل غاية ، انه يتمرع بالوحل ، اقدارها ، وهالك ، لاصقة به عالق ، وحينا
 ينظر الى نفسه في مرآة داهية ، يحقر هذه النفس ويحتويها ، فيعمل على ان يفرغ
 بالوحل ، كل من يتصل به ويتقرب منه ، ان محموقا يعلم حق العلم ، بان الدموع
 التي تراق بين يديه لا تلبث ان تجف ، وان القلوب التي تنعرق عليه سرعان ما
 تكف ، ان محموقا يدرك هذه الحقيقة المرة ، هل يسع اكثر مما يأخذ ؟ وهل يعطي
 اكثر مما ينال ؟ من هنا كان من (الآفة عشق القيان) كما يقول الجاحظ ، ومن
 هنا كانت (القبة لا تخلص محبة لاحد ولا تؤذي الا من باب الطمع) كما يقول
 ابراهيم الشيباني .

.

ولكن المخلوقة التي قصت عليها الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، القائمة في
 ذلك العصر ، بالهتك والحياة ، كانت تحب وتعشق مثل سائر الناس ، كان لها
 قلبها المواري بالعواطف المتموج بالمشاعر ، كانت تحب كحل ما اوتيت من قوة ،
 ومن الحب احست بوجودها الحي ، وعذرت على شخصيتها الصالة ، فنحت

الشخص المعبود كل شيء دون ان تسأله اي شيء ، ان مخلوقة لا أمه ولا أب ، ولا أخ ولا اخت ، ولا ولد ولا وابنة ، تصفي كل مشاعر الاوة ولا مومنة والاخوة ، على ذاك الانسان الذي نخبه ، وفي هذه الشوة اللامت هبة في العف المطلق ، بظهر الحب الرحمن ، فبثق الوفاء والاحلاص ، فبثق يبعث بحبوس تفجر معة ، ففاس بالخير والور واحسان ، هكذا كان حب القين ، حب انسان وجد في اله طعة ، الاملاذ لذي يستريح اليه ويستكن ، وطريق الخلاص من الوحدة الرهبة ، وحدة الشيطان

فكم من قبة صحت بحياتها ، وهي فريرة العبد دعة الدل ، ليدحق بذلك الذي حبه ، فقد روى المسعودي في كنه مروح اذهب لما قتل المتوكل صحت محبوة وكثير من الوصاف اي بعد الكبير ، فدخلت عليه يوما للمداومة ، فامر منث السادة ، وامر بالقبين يردن في الخلي والحلل ، واقبنت محبوة حاضرة من الخلي والحل عليها بياض ، فجلست مطرفة مدكسة ، فقال لها وصيف غي دعنت عليه ، فذل اصبحت عندك : وامر بالعود ، فوضع في حجرها ، فلما لم يجد يد من القول ساولت العود من حجره ، ثم غنت عليه غناء مرنجلا :

اي عيش يلد لي	لا اري فيه جعفرا
ملك قد رأيته	في نجيع معفرا
كل من كان داح	ل وسقم فقد بر
غير محبوة التي	لو توى لموت يشتري
لاشترته عما جود	به يداها ، لتعيرا

فغضب عليها وصيف ، وامر بسحب ، فصححت وكان آخر العهد بها . وكمن من قبة عرست حياتها لخطر كيد في سبل من تحب ، فقد روى اسحق الموصلي انه كان للامون حرفة من ، عبي وفيهم معن يسمى موحسا ، عليه ومعن حال ، فبينما هو عنده يعني ، اذ تطلعت جدرية من جواربه ، فطرت اليه فعلقته ، فسكات اذ حصر سوسن ثموي عوده ونعي .

ما مررت بالوسن العن الا	كان دمه لي لقلتي ليدنا
جهد انت والمسي به نبي	وان كنت منه اذ كي سينا

فلما غاب سومن ، أمسكت عن هذا الصوت وأخذت في غيره ، فلم تزل تفعل ذلك حتى فطن المأمون ، ودعا بها ودعا بالسيف ولطمع ، ثم قال لصدقي أمرك : قالت يا أمير المؤمنين بمعني عندك الصدق ؟ قال لها إن شاء الله ، فقلت يا أمير المؤمنين اطلعت من وراء السنارة فربته فعلقته ، فمسك المأمون عن عقوبتها وأرسل إلى المفتي ووهبها له .

وكم من قينة طلت حريصة على عهد صاحبها ، لا قتال ولا تناسل ، فقد روي أن قنم الصالحية لما أصبحت في حورة الوائق دقة ، وامتنع ابن الزيات عن دفع ثمنها للرجل الذي كانت عنده ، لم تتووع عن معصية خليفة بالحقيقة الراهنة ، فقالت له : (من رباني لم يطعم إلا النعب وللعزم ، ولم يظفر شبد) فما كان من الحلبة إلا أن امر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، وكم من قينة أقت بنفسها في غياهب نهر دجلة ، لأن من نجبه بعيد عنها ولا مسيل إليه . كذلك كان حب القبان ، حب عاصف عنيف فيه تصبعية راحل ، وفيه هناك وهجور ، وكذلك كانت حبة القبان حبة مشرقة في حين ومعتمة في حين ، حبة نمضي حيناً انقضى وقد تركت في أثرها خطاً من نور ونار .



ابراهيم الموصلي

اثارت نزوات ابراهيم ، حبيطة اهله ودويه ، فقد عر عليهم ان ينصرف هذا
 الفتى الصغير ، الى اشياء لا خير معها ولا نفع فيها ، وان يارس صنعة ، لا تجلب
 الا الضر ولا تحمل في اطوارها الا سبة الدهر ، فقد كان شأن العماء في ذلك الزمن
 شأن كل من جبل ، لا حرمة لصاحبه ولا مكانة للأحد ، بابه ، ولكن الفن الغنائي ،
 كان يسبع من قلب ابراهيم ، ولم يكن في مقدوره الصدوف عنه ، كان الفن حياته
 ومادة وجوده ، وجد فيه مدى لروحه الشاعرة وصدى لبس مرهقة حساسة ، فلما
 ضاق بتعنيف اهله ويوم بلوم دويه ، غادر الكوفة ، الى الموصل ، املا منه في ان
 يجد في هذه المدينة ، الاقرب الرحب ، الذي يتجاوب مع طبيعته النفسية ، فينتقل
 على هواه ، لا رقيب ولا حسيب ، ولكن ما امله ، مرعات ما نخاب ، فعاد إلى
 الكوفة ، عاد وهو يعتقد ، بان يمدد عنها سنة كاملة ، قد يردع المتؤمنين ، فلا
 يعاردون اللوم والتأنيب ، ولا ينحدون عليه ، فها هو ، مصروف اليه ، من حب للفن
 وكلمة بالناس ، غير أن هذا الاعقاد ، كان في غير محله ، لمدينة النحر واللغة وفقه
 اللغة ، ما كان في مقدورها ان بعضي الطرف عن هذات هذات بعندة بشخصيته ويشبه
 على الناس بعفريته ، ويرى في الفن رسالة حرية والجمال ، فاحساسه المرهف ما
 كان ليطبق النقد ولا التجريح ، وبيئة الكوفة المحفوظة ، ما كان في وضعها ،
 الاستجابة الى ما هو في سبيله ، وذلك اللقب « الفتى الموصلي » الذي لاحقه به
 الناس ، اني اقام وحيثما توجه ، ما كان ليستهوبه ، بل ان كل هذه الاشياء تضاهرت
 معاً ، لتعمل على الفرار من جديد من الكوفة ، فمضى الى الاله ، تلك المدينة -
 الشعرية ، المدينة التي كانت معقلا من ارواح معاقل العناء العربي والمعجمي ، فعاش
 حياته ، يغني ويتعلم الغناء ، ويشرب ويسرف في الشراب ، هنا وهناك ، كانت
 الفتوة وزهوتها المشرفة ، تدعوه ، فيستجيب الى نداءها ، لا يعيش الا ليومه ،

وليومه وحده . ولكن شعبه الموسيقى ، كان من القوة ، بحيث أنه كان دائماً
وابداً ، يتطوع أى صلب المرید ، فيعدون استعداداً تاماً الى في العدا ، في هذه
المدينة ، شد لرحل الى الري ، فقد سأل اليه ان يحوسباً يقيم في هذه المدينة ، وأنه
ضرب بسهم واحد في عم الموسيقى ، وقد اجتمع الى هذا المعجم الكبير ، وجد فيه
الامن المشهود ، لقد كان قريباً منه ، بحجته ، رابطة الحسن والاصل ، فأقام
عنده يغنيه ويستمتع فيه ، حتى دأب صيته واشتهر اسمه ، فاستدعاه والي المدينة ،
وطلب منه لاقامه في قصره وحضور مجلسه ، ولكن الفتي الموصلی البوهيمي
الافاق ، رفض التماس اوى ، كان يريد ان يعيش حراً طليقاً ، بلبلأ يعود على
هواه ، في ديار لا حدود له ولا مله ، كان يريد ان يعيش للفن ، لا فتي عليه اغبة
ولا يفرض عليه مله ، اما القصور والخدمة سامعة ، لم كانت لهوية وتعريه ، وذلك
لان حريته كانت عده اعلى من كل شيء ، فلما قل لوى مدينة لابلية : انا اعني ابدني
الشخصية ، ماور لوى الدهش ، بعد كان لافتراح الذي عرصه على الفتي الموصلی
عاية ما نصو اليه نفوس المحررين ، وشراف ليه اعناق المعين ، لما كان منه ، لا
ان المع في الطلب ، واثار بصرف حبه الى الدشع غير مستحبه التي بتعرض اليها ،
فيما اذا لم يبول على راده ، لم كان من اعداء ، لا ان رصخ ، وهو لذلك كاره .

وهكذا انتقل ابراهيم الموصلي من بيت حنظل الى قصر سيف ونير ، ومن حياة
بوهيمية مشردة الى حياة موروثة متبركة ، يعني وبصع لاطحن ، وبصوع الشعر
وبطلمه ، بوصول لصبح المروق ، وحبوق بالمرح ويعلم آداب معاليس لامراء ،
تلك لاداب التي كان لا بد منه ، بعد ان يعيش في طن قصر امير ، ويظهر أن القدر
الذي اعده ليكون مطرب ملاط لرشيد ، كان يهيئه له كل الاسباب ، للوصول الى
هذه العاية ، فقد اتفق المهدي ، ان يبعث باحد تناء ، يتفقد شؤون الولاية ، فاما
حظ في مدينة الري ، استدعاه وابيه اليه وحضر مجلساً من مجالس ابراهيم الموصلی
الغنائية ، فأدرك موقع المهدي ، ان هذا بعد ان لا يصلح لقصر امير بقدر صلاحه
لبلاط حليفة ، ان مواهب العبة ، في وسط ظير وسط بغداد ، ستكون اوفر
اردهراً ، من وسط ظير وسط الري ، فاما وصل الى عاصمة المملكة الاسلامية ،
حدث الحليفة بقصة ابراهيم الموصلی ، فاما كان من المهدي ، الا ان اوعز الى والي

الري ، ناشخص الفقي الموصلي اليه .

لقد كان الخط يسير في ركاب ابراهيم الموصلي ، دون ان يدرك هو نفسه ، بان العناية الالهية ، كانت ترشفه بمصيف ، ودون ان يحجم في يوم من ايام حياته ، بانه سيقدر له الشخصوس الى بعدد ، ليكون مطرب الخليفة ، فلما وصل الى مدينة السلام ، ووقف بين يدي الخليفة ، وسكده ، آسن الخليفة في العنان ، موهبة ادا تعهدت بالعناية ، تمنعت عن عبقرية مبدعة ، فقربه اليه وحضره من الاسترسال مع العواية ، ان بعدد حاصرة الاسلام ، مديبه فيها من المعربات ، يفوي السك ومطرب الخليفة يحسن به ، ان يكون في معزل عن هذه العوايات ، والخليفة مؤمن غيور ، وهو حريص على ان يتحلى رجال بلاطه بصفاته ، فلما لفت نظر العنان الى هذه الناحية ، عاد ابراهيم الموصلي ، ليردد امام المهدي ما رده امام والي الري ، انه فنان ولا قبل له بحياة لا تمت الى الفن بصله ، وانه يعلم صناعة العناء ابدنه وعشرة خوانه ، ونجاهل المهدي هذه الملاحظة ، وضمه اليه ، بعد ان حظرت عليه حضور مجلس ولديه الهادي والرشد .

واكن طبيعة ابراهيم النفسية من ناحية ، وبيته بعدد من ناحية اخرى ، ما كان في مقدورها ، لادع ان تعدير الخليفة ، كان ابراهيم الموصلي يشد الفنى لدائه ، وكان الشراب في ذلك الزمن من مستومات العناء ، وقد عد البعداديون العناء بدون شراب عريضة ، وكان وسط بعدد ، لمرح امضيق الصداح ، وصفاً موازياً خصباً ، لشخصية نظير شخصية ابراهيم الموصلي ، فليالي بعدد الساهرة في القصور والدور وعلى حرافات دجلة ، وفيها وجوارحها ، ومعتوها ومطربوها ، وطرفاؤها وندماؤها ، اشياء تستهوي لب الحبيب الخليم ، فكيف بابراهيم الموصلي ، المتلف للتمتع بالمباح ، التواقي للعدس ؟ انه الآن في المدينة التي خلقها وحلقت له ، انه شاب يزخر وجوده بالفتوة ، وانه فنان يشرب الخيال ، هاهنا وهناك ، فانطلق حينها اتقى يشرب وينفي ويلمو ، ويغشى معالي الهادي والرشد ، ويعي في حصرة الاميرين ، دون ان يجعل بتعدير الخليفة اويانه بعقاب الخليفة ، ولما تناهت هذه الاباء الى مسامع المهدي ، غضب على العنان ، فاستدعاه اليه ، وجلده وجبسه ، وما كان في مقدور الاميرين الهادي والرشد ، ان يتدخلوا في الامر ، لئلا يتهاهما من

تفريق الخليفة ما لا يستحب منهما ، ولم بعدد الخليفة العنان ، كما انه لم يدرك
طبيعته النفسية ، وقد كان من الصعب على ابراهيم ، تجاهل دعوة الاميرين ، كما كان من
الصعب على ابراهيم رفض هذه الدعوة ، كان فيهم ناه دي ، سيكون خليفة وان الرشيد
مستنهي اليه الخلافة بعده ، ثم دأب لدي بضمن له دعوة الرقص ؟ ومن ذا الذي يضمن له
البيعة من العقاب اذ قد ينظره ؟ وكانت مجلس الاميرين ، حالية من وفار بلاط
المهدي ، هذا الدور الذي فرضه ترمز عليه ، والذي ما كان يتجرب مع خلق
ابراهيم ولا مع مرصه وطلائه ، كان في الامكان ، والحالة هذه ، ان يصبح ابراهيم الى
تحذير المهدي ؟ كان في الامكان ان يحس نفسه في قصص ، بدلا من الانطلاق في
العصاة الرعب ؟ ان فقد لدعى الذي راده له مهدي ، ثم تخفق له عدي ابراهيم ،
ولا نامل اليي مدعب سمع على الاور ، ولتسعي على بوحود ، روع ما يجيش
في صدر صاحب من مشاعر وادكار ، ما كان مثلها ان ترسف في الاعلال ، من
الموصى بدع انطه ، وم بومه ابراهيم ، وما حصره ابراهيم ، ما لبث ان آل الى
حقيقه راهبه ، فقد سنده موسى هدي ، عقب بفضه مقابله خلافة ، وآبى على
ما سبق منه ، ولو لا حسن خلص ابراهيم ، كان نصيبه من الخليفة الجديد ، لا
يقبل عن نصيبه من الخليفة اراجل ، حله ربح وءش ابراهيم الموصلي ، في اعم
دل و حسن حال ، معه موسى اهادي اخواته الى لم يبع مثلها غيره من نصيبين ،
ويهبه من العطاء ما لم يحظ بظهوره . واه من نظريين ، فقد قيل ان موسى اهادي
اعطاه في يوم واحد منه وحسين الم دور ، الامر الذي جعل اسحق بن ابراهيم
على انقول (لو ءش له اء دي لسيد جيعون دوره بالذهب و الفضة) ، ولكن ايام
موسى اه دي لم يصل ، واهجر اعى الذي كات القيوم تحجبه ، بين حين وحين ،
ما لبث ان سقر في عهد الرشيد ، فادابه بدائق وادابه يشع ، والعنان الذي كان
معينا لا اهل ولا اكثر ، اءسح بدنياً بلارم الخليفة في حله وترحاله ، فيقرن اسمه
باسمه ، لبؤلها معاً ، اسطورة الم ابيه وابية . ثم وجد ابراهيم في الرشيد ، خليفة
المشود ، الخليفة الذي يقيم المحسن العمانية ، ويسمع الى المعيبين والامعيات ،
وتفرص في حصره مثل الخواري ، لابي والدستدا ، وتنتقل على الكرخ ،
رشيقه خفيفة ، ويقف في بلاطه الشعراء ، يدحونه ويحذونه ، في هذا الجو الشعري
اقام ابراهيم الموصلي يبال صلات الخليفة وصلات الترامكة ، ديا مترعة الكأس ،

تقبض على افعام وتسبح في احلام ، ولكن هذه الشعلة العسية ، التي ظلت تنقد على
موائد الخلفاء والامراء ، فتبقى الاوار على من حولها ، ما لبثت ان خبت ، فعر
على الرشيد صبح هذه الزروة الصخرة ، فرار ابراهيم وهو — الى فراش الموت ،
وبعث ابنه المأمون يسير في موكب القرب ، حيث يوارى ثوب ثلث شعلة الخالدة
الى جانب هذه الناحية المارة من حياء ابراهيم الموصلي ، فقد كانت هناك ،
ناحية خاصة بالعدن وهذه ، ناحية حياته لنفسه ، ولم يحمله هذه الحياة ، من آمال
وآلام ، فقد احب ابراهيم ، كما احب غيره من العساكين ، احب بطرقة ، ذات
الحل هذه العترة التي احبها الخفاء كما احبها المطربون والشعراء ، فقد كانت ذات
الحل ، من ذلك الصرب من النساء ، التي يوفرت لمن موهبة فن الاغراء ، كانت
مرأة جميلة وشبقة ، وكانت تعرف ثمر هذه الرشافة ودت الحل في العفوس ،
فاستعلت ما حبتهم به الطبيعة ، لتعكك بالثوب وتعت بالقول ، ولم تعلم العناء
وصوله ، لافن العذ في دانه ، وقد جعلت منه رسيبة لهبه ، كانت ذات الحل امرأة
براعة الى القصور المبهجة ، توفة لان تكون سيدة من سيدات المجتمع ، فلما استدعى
سبدها العنان ابراهيم الموصلي ، ليعلم العناء ، وجدت في ابراهيم صالتها
لشدودة ، اما الآن جارية مغمورة ، وليس في بغداد مثل ابراهيم الموصلي ، من
يشيد باسمها ، ويرفع ذكرها فحدث حوله الشبه ، ليقع فريسة عاجزة ، لا حول
ها ولا طول ، وسقط ابراهيم ، سقط في الفخ المنسوب ، فراح بسطام فيها القصائد
ويبلغن ويقني هذه القصائد ، في مئزها وحارج مئزها ، حتى اشهر امرها وداع
صيتها ، واتفق للخليعة هرون الرشيد ، ان تتمع في مجلس من مجلسه العنائية ،
قصيدة من قصائد ابراهيم المدحة في ذات الحل ، فاستدعى مولاها واشتراها منه
بمبعين الف درهم . هذا ابتقت آلام ابراهيم وتعجرت ، فقد كان يتوقع كل شيء
إلا ان تغلت من بده ذات الحل ، ويذهب الى بلاط الرشيد ، حيث لا أمل بلقاء
ولا رجاء بوصال . كان الخليعة حصصه وان لانه ترع ما بيد الخليعة ؟ وجشت
نفس ابراهيم تارق القصائد وأشهى لالحن ، وراح يذكر تلك المرأة التي خانت
العهد ، وبالعودة والمواثيق ، ولكن ذات الحل تجاهلت وناست هذا كاه ، فقد
بانت جارية من جوارحي الخليعة ، لا بل من حبين اليه وآثوهن عنده ، ويظهر ان
قصائد ابراهيم والحن ابراهيم ، تارت الشك في نفس الخليعة ، فلما كان في مجلس

من مجالس الشراب ، ساء الرشيد ، وبدا كانت ثقة علافة بينها وبين ابراهيم ،
 فمع يسع ذات الحال ؛ لا ان نجيب بالاجاب ، فمر على الخليفة ان يشاركه فبين
 يجب ، بخوق نظير ابراهيم الموصلية ، وأص عليه مصيب الحافل ، صبوات الآخر
 بالزوات ، فكرها واخواتها ، ثم وهب اي حاجبه حمويه ، ولكن هذا الكره
 الذي ساوره ، ما لبث ان تدد ، فقد عد طيف ذات الحال يطرق بابه ، مذكراً
 بابه ، بتلك الليالي الطوة ، فذهب الى دار حمويه يستمع اي صوت ذات الحال
 ويستمع النظر بدات الحال ، ولما ساء حاجتها ، كائنه ، كانت ، ترامت على أقدام
 الخليفة ، وطلبت لسيدها ولاية الحرب والخرح في فارس ، وكان لدات الحال
 ما ارادت .

لم تفكر دت الحبيب ابراهيم ، بل فكرت بتحقيق الاحلام التي طام راودت
 حينها ، كانت تنوق اي ان تكون سيدة قصر ، وهما هي دي الاماني ، تعدو حقيقة
 راحة ، انتحلي عني ، لاجل مطرب ؟ وما شأن ابراهيم في هذه الحياة الدنيا ؟ انه
 معن ، يطرق دور الخلاء ، والامراء ليسكب بعمه العتي ، ومن هذا الرجل لا يملأ
 خواء حياتها ، ولا يروي عطشها انتطلع اسلم الى المريد . اما ابراهيم فقد كانت
 مكنته في هذه امرة ، اشد منه في امرة الاولى ، فقد كان تصور الوهم ، يحمله في
 كثير من الاحباب ، على لاعة دون دات الحال ستعود اليه ثانية ، وانها ان
 تنسى حبه ولو نجهد قصده ، ولكن ما لبث ان حاب ، فقد ذهبت دات
 الحال ، لكيلا يعود ابداً . اما حمان العن الذي يتحلى به ، هذا الحال الذي كان
 يميل اليه ، ان له اثر في قلب دات الحال ، فقد كان يحرد مراب في نظر هذه الخوقة
 ومن هنا شأت مأساه ابراهيم ، فقد كان شأنه شأن من ثر العدين ، يجب ويصن ان
 جمال فيه ، استبق من اعرق وجد به ، يرق على وجوده ، جهال العن وجلاله ،
 فيدفع في الحب ، وهو مؤمن بده القرة السعربة ، ولكن المحبوبة التي اخذت
 يتهاويل العن . لا ننت انت تستعيق ، ودا بالمشوة التي خامرنا وهما تصبغ الى
 افاشيد القلب وتر نيل الحب ، تزول وتلاشي ، وادا بمعرفة الخود ، تضمحل .

هذا كان حال ابراهيم الموصلية مع دات الحال لقد ذهبت الى فارس مع حمويه
 لتظن فيها سبع سنين ، اما هو فقد اطوى على جرحه لبعي ا
 جرى الله خيراً من كلمت بحه . وايس له إلا النموه من حبي

ابراهيم بن المهدي

لم يدرك بخلد العباسيين في يوم من ايام ، ان يقدم ادمون ، على العهد بولاية العهد ، اي رجل لا يحب اي البيت لعباسي بصله ، فذا اعصوا الطرف ، على النهاية لايمة التي آلت اليها حياة الامم ، ففس في مقدورهم ، ان يقفوا موقف المتفرح ، من انتقال الخلافة من بيتهم الى البيت العلوي ، وهم الذين تزعموها بالقوة من الامويين ، فالخلافة في عرفهم ، امدت في عتق الخليفة ، ولا يسوع في حال من الاحوال ، ان يثبت الخليفة ، هذه الامة . فبقول السلطان من بيت الى بيت كان العباسيون يعتقدون بان الخلافة حق من حقوقهم مكتسبة ، وعلى الخليفة ان يصوت هذا الحق ويواصل دونه ، وداهم تحطه وتجارده ، لم تعد طاعته واجبة عليهم ، ولا رعايته مبرمة بهم ، وكان ابراهيم بن المهدي ، من شد العباسيين ، انحرافاً عن البيت العلوي ، فلما رأوا ان ادمون ، احد في عهده بولاية العهد ، اعني بن موسى الرضا ، لم يجدوا ممدوحة ، من مديعة ابراهيم بن المهدي ، انه ابن خليفة وشقيق خليفة وعم خليفة ، ومن د لذي يسميه في امكاه ؟ ولكن لذين رثاوا هذا الرأي من افراد البيت العباسي ، لم يمسوا النظر في طبيعة شخصية ابراهيم ، صحيح ان ابراهيم ، هو ابن المهدي واحو الرشيد وعم الامين وادمون ، وصحيح ان ابراهيم من شد الناس انحرافاً عن عبي س ابي طالب ، ولكن ابراهيم لم يخاف ان يكون خليفة ، كان فاضاً في اخلاق روحه ، ن احلام المنوروا ، كانت لافق الحقيقتي لديناه ، فهو اذ يطر الى الاشياء ، لا ينظر اليها بعين الرجز الذي يعيش فوق الارض ، ن بعين الرجل الذي يخلق في عم الانامية ، كان العن وجوده ولا شيء آخر غير الفن ، وب نقد مة ليد الحكم ، تانرت تلك النافة الجميلة ، هنا وهناك ، ثم ما لبثت ان صوحت ، فوق بلاط الخليفة ، ذاك لان تلك الباقة ، لم تخلق إلا للعدائقي الصاحكة ، وهكذا عمرد اهل بغداد على ابراهيم بن المهدي ،

وقضى يده منه أولئك الذين عرروا له ، ولما احس ابراهيم بالخطر ، صلى الناس
يوم البحر ، واحتفى في اليوم الثاني ، احتفى عن اعين الناس ثلاث سنوات ، بعد
ان ظل متربعاً على عرش الخلافة سنة وبمصر سنة . لقد كانت الخلافة لابراهيم ،
فاتحة مكتبة آليمة ، فقد جعل المأمون لمن دل عليه مائة الف درهم ، وانه مبلغ ضخم
يعوي ويعري ، عابثت الارصاد واظاقت العيون ، رجال وساء يعدون في ثره ،
اما ابراهيم فقد كان يدور ويوب ، في كل يوم ، لابل في كل ساعة ، خوف يرنو
اليه ، وجرح يشل بديه ، لقد تخلى عنه الناس ، وتألبوا صده ، وها هو ذا الآث
مريسة وحدة رهبة ، يضطرب من طله ويرغب من حبله ، اما أولئك الذين مدوا
اليه بدم بالمهد ، من البيت العباسي وغير البيت العباسي ، فقد انكروا له في هذه
الحقبة من الزمن . عرف ابراهيم بن المهدي الناس ، عرف ان الصدق والاخلاص
والشرف ، ليس في تلك القصور المسبعة ، بل في تلك البيوت الصغيرة الخفية ، في
بيوت أفراد الشعب ، فاداهم الحادة وانكروه الاعوان وخذله الانصار ،
فالحفاة المرة ، لم يتحلوا عنه ، فقد فتح له بيته وهو العليم بأمره ، فرد من افراد
الشعب ، وكا من المهمل البشير على هذا العرد ، ان يظهر بجائزة المأمون لو دل
عليه ، فبغدو بذلك عيياً موصراً ، ولكن بله الاصيل اس عليه ذلك ، لاس رفض
ان يأخذ درهماً واحداً من ابراهيم بن المهدي ، لينمقه عليه وهو في داره . قل له
وهو يودعه (الصعلوك من لا قبلة له عند اهل الريسات ويظنون فيه الظنون
الرديئة) ولما حرج ابراهيم وذهب وهو في ربي امرأة ، كان الذي دل عليه ،
احد أولئك الذين عاشوا بحيرائه ، وسموا بهبهه ، ولكن العمل الصالح ، ما كان
ليذهب جفاء ، فقد استطاع ابراهيم ، بفصل يديه المتوقدة ان يسق نفسه من
الموت ، وان يظهر بثرثة لأولئك الذين عطفوا عليه في ايام بؤسه .

وعاد ابراهيم سيرته الاولى ، عاد الى ديب العن وعامه ، عاد في هذه المرة ،
وهو لا يفكر إلا فيما حقق له ، يدخل على المأمون في ثياب وزّي المطربين ، ينشد
بين يديه قصائده ويغني امامه لحانه ، اما تلك الطمأنينة التي نعم بها في صالغ عهده
فقد هجرته ورأبته ، وظل طوال خلافة المأمون ، في قلق وجزع لا يستقر له حال
ولا ينعم له نال ، فاداهم الحفاة الايام حفيظة المأمون ، فقد كان هناك من يوظف
الحفيظة ويوغر الصدور ،

وهما مات المؤمن ، شعر ابراهيم بأن حياته ردت اليه ، لقد تبدل امام المؤمن
 وخلع العذار ، وتسمى انه من البيت المذكور ، ليحلل المؤمن على الاعتقاد ، بأنه
 ليس غير فان بسيط مثل ماثو الفنايين ، لا يحتم ملك ولا يفكر سلطان ، فعل
 ذلك كله ، لانه كان يتصور كما فعل لحدوق ، بأن المؤمن (لم يبق عليه حبة فيه ولا
 صلة لرحمه ولا ربه المعروف عنده ، ولكن ليسمع منه ما لا يسمع من غيره)
 فالحليقة الذي لا يطهر للدماء عدة اعوام ، حتى يطهر به ، لا يصفح بسهولة ولا
 ينسى بسرعة ، ولا يبقى على حصمه دون ما غبة ودون ما هدف .

وهكذا انقلبت حياة ابراهيم بن المهدي ، بن رفع وخفض ، عاش حياة فدن
 كما عاش حياة سلطان ، لم يسم في حياته السياسية من غمة الخلفاء الحاكمين ، كما لم
 يسلم في حياة الفنية من نقمة الفنانين ، كان اسحق الموصلي ، يصاب ابراهيم بن
 المهدي ، عداء لا هوادة فيه ، كان كل واحد من الفنانين ، يسعوا مذهبي غائباً
 مختلفاً . وحكام كل واحد من الفنانين ، ينافس الآخر لدى الخلفاء ، ليطفر
 بالجائزة الكبرى ، ولم تكن صلة الرحم ، لتحول بين الخلفاء وبين حبس ابراهيم ،
 فكم من مرة زجه الحليقة في السجن ، وكم من مرة غضب عليه ونيدده وجفاه .
 ومن طامة الالم وبسمة الامل ، بيعت حياة ابراهيم ، وتدفق البنبوع ، ليعمر
 لارض الفاحشة ، ليعمرها بذلك العيص المبدع المهم .

كانت المعركة بين اسحق الموصلي وابراهيم بن المهدي معركة القديم والجديد ،
 هذه المعركة لا بدية التي لا تحبوا لها ولا يحمدوا اوار ، فقد كان اسحق
 الموصلي من اولئك الفنانين الذين يبعدون التراث الفناي القديم ، ويرون فيه المثل
 الأعلى الجدير بالاتباع ، وليس على الفنان المعاصر ولا السير على غرار الفنان القديم ،
 يحذو حذوه ويتبع ظله ، وكل تبديل وكل تعديس ، يدخل على هذا التراث ، جريرة لا
 تغفر ، وللقديم حرمة ، ان هبكله المقدس ارث الاجيال ، الاجيال التي همت
 متعاقبة على ابدائه ، ثم وهبته حياة حادثة ، ليقى رمزاً أبدياً لعبقريه الانسان .
 على حين ان ابراهيم بن المهدي ، كان ينكر على اسحق الموصلي هذا الاعتداد
 القديم ، لان الحياة لا تنى على الموت ، الحياة ابتكار مطرد في كل حقبة يضفي
 الانسان على التراث القديم شيئاً جديداً ، وكل احد بأسباب القديم ونقليده ،
 تعطيل لمدارك الفكر الخلاق ، فدا كان انصار القديم يعتقدون بأن العبقري الخفة

هي في الخضوع للقواعد المقررة، والتمرد على هذه القواعد، لن يؤدي إلا الى الفوضى
 فان اصار الحديد، يعتقدون بأن الاثر العمي مهائن في عاقبته، فهو في الحقيقة
 خاضع لقانون، متسق فتم في عمق اوجده الاب في، ادلا شيء في هذا الوجود،
 لا وهو حاصع لقانون، وجود، ون الحديد طوع للحياة، وكان اسحق الموصلي
 في نضاله دون القديم بسصل دون التقليد، كان اسحق الموصلي مطرب البلاط
 الملكي والبلاط محاط، وثقة مؤمرهون على هذه الكلاسيكية التقليدية، على حين
 ان ابراهيم بن المهدي، كان متمرداً على البلاط، ثار صده وشق عصا الصداقة عليه،
 فهو متمرد وثائر بطبيعة الحال، على كل ما ينصل بالبلاط وتقليده، فبما كان
 اسحق الموصلي يتقرب الى البلاط برحمته ومحاولة، كان ابراهيم المهدي يحاول
 تحطيم هذا البلاط، تحطيم اوارث تقليده، الاول كان لا يقر ادخال أي تبديل
 أو أي تعديل على الفن القديم، لآب هذا المعدل ودك التبديل، نتيجته غير المباشرة
 تفويض لدعائم النظام القائم الذي بنعم في ظله، ما يحب ويشتهي، والثاني يقر
 التبديل ويرحب بالمعدل، لانه في نتيجته، غير المباشرة، نتج ما يصو اليه،
 من تفويض للنظام القائم، الذي يكرهه ويحتو به، ولا يجد في ظله ما يحب ويشتهي
 كان الفن صورة حرة، هذا يريد على وجه، وذاك يريد على وجه آخر،
 وهكذا كان الفن في جميع مراحل معبراً عن اتجاهات اجتهادية في اشكال
 والوان دائمة

وقد ذهب المؤرخون الى القول ان ابراهيم بن المهدي، لم يقدم على تحريف
 القديم إلا لتقصيره عن ادائه، والحقيقة ان جرأة ابراهيم بن المهدي على القديم، لا
 ترجع الى تقصير ابراهيم بن المهدي عن أداء القديم، بقدر ما ترجع الى تلك الثورة
 الكامنة في نفسه، الثورة ضد النظام القديم الذي كان في مقدوره انبقاء، لولا
 تمحيد ماضي وتقليد دمي، ومهما كانت البواعث الاصلية لهذا العامل العمي،
 فالامر الحدير بالملاحظة، هو ان ابراهيم بن المهدي، استطاع ان يجرر الغناء العربي
 من قيوده الكلاسيكية، استطاع ان يرحح الاعتقاد السائد، بأن الاشياء في هذه
 الحياة لدنيا، ثابته ودت صفة مقررة، وان يدخل في روع الناس ان تحطيم
 الابرار المقدسة، لن يعير من الخيفة شيئاً، ادبوسع المطرب ان يعي كما يشتهي،
 لا كما تقضي بذلك هو عد القديم المقررة، وان يوهط الاحساس بالجمال ولو بخطي

التقاليد . وقد كن لهذا العمل لذي وصفه بأنه جرأة ، أتوه البعيد في ذريخ العناء العربي ، اذ شأت مدرسة جديدة بزعامة ابراهيم بن المهدي ، مدرسة ضمت محارق وشارية ، وتابعت هذه المدرسة طريق توه البارجني ، في عصر توفرت فيه كل وسائل اردهار العناء ، محارق كن مولى بعية قديمة ، تدعى عنكة نشأ في بيتها ودرج في رعايتها ، ثم ما لث ان اشتراه ابراهيم الموصلي فتفقه وعلمه ، حتى صار في عداد كبار مطربي العصر العباسي ، قل عنه ابراهيم الموصلي وهو غلام (لم نحدث العرب ولا المعهم مثله ولئن يكون مثله ابدأ) وداع اسم محارق حتى وصل الى مسامع الخليفة هرون الرشيد ، فقربه اليه وحباه المال والصياغ والدور (فعاش في نعمة سابعة لا بمكر حياته إلا ذلك النزاع القائم بينه وبين ابن جامع فقد كان محارق يحفظ من اول مرة اللحن الذي يسمعه ، فادأ ما عى ابن جامع بين يدي الخليفة ، نسب محارق اللحن لنفسه ، فيثور ابن جامع ويعصب ، ويستقبل محارق هذا العصب وتلك الثورة ، بسمة عذبة عريضة ، ثم يعضي ، ويعضي دون ان يبوي على شيء ، وكان محارق يقرر موهته الصوتية حق قدرها ، وفي مرة في باب السلام والناس في طريقهم الى المحج ، فقل لأحد أصحابه لقد كان ابن سريج يقف في مواسم المحج ويغي ، فبصر الناس مما هم في سبيله ، وأنا الآن صاع ما صعه ، وأذن محارق فتوقف الناس يصعدون الى صوته ، وهرعوا من كل حذب وصوب ، الى حيث هو وف ، يرهقون الاذان ويصيحون السمع ، وبالرغم من نشأته في المدينة معقل العناء الكلاسيكي ، وبالرغم من أخذه العناء عن ابراهيم الموصلي وعيم الف الكلاسيكي فقد حرر نفسه من رقة القديم ، وصار على غرار ابراهيم بن المهدي ، لا يقيد نفسه بأسلوب القديم ، ولا بطريقتهم المماثلة . وشارية كانت جارة من جوارى ابراهيم بن المهدي نفسه ، اشتراها ابراهيم وهي فتاة صغيرة فعهد بها الى فتيمة جواريه ، حتى اذا شت نولى ابراهيم بن المهدي تعليمها ، عنها اصول العناء ورواية الشعر ، واخبار العرب ، وما الى ذلك من المعارف الضرورية اللازمة ، لكل فينة من قبان العصر العباسي ، وكانت شارية امرأة جميلة صابة ، حاول أحصام ابراهيم بن المهدي ، اقترعها منه بدعوى انها قرشبة الاصل ، اختطفت وهي صغيرة من الحدر ، ثم جلت الى البصرة ، فأوعروا صدر المعتصم صده ، لما كن من ابراهيم بن المهدي ، لا ان تزوجها ،

فعال بذلك دون المأمرة التي دبرت ضده ، وهكذا شأت شارية في حجر ابراهيم
تغني شعره ، وتردد ألقابه ، وشهر سمها وداع صيتها ، فعت بين ايدي الخلقاء ،
ونأت جو ابراهيم ، كما عمت جوارى الحنة ، لحن ميده ابراهيم ، كما شأنها مع
(طباع) جارية لوانق ، وما يقل عن المطربة شارية والمطرب بخارق ، يقال عن
غيرهما من المطربين الذين احدوا بأسباب طريقة ابراهيم بن المهدي الغنائية ، فقد
كان أفراد هذه الطريقة لا يقفون باحتذاء اسلوب ابراهيم بن المهدي الغنائي
فحسب بل ينقلون غيرهم هذا الاسلوب ايضاً ، لاسر الذي جعل لابراهيم مدرسة
مطرودة المصبي والاطلاق ، مدرسة لا تند بولادة ابراهيم بن المهدي وتقوم بوقته ،
بل تظل قائمه سابع تطوره التاريخي .

• • • • •

لما عهد القواد الذين بعضهم الافدام على تغيير العناء القديم ابراهيم بن المهدي
قل لهم ابراهيم انا ملك وابن ملك ، اعنى كما اشتهى وعلى ما الد ولم يكن هذا
الجواب مجرد فكرة عبثية ، وانما كان حقيقة حبه ، كان ابراهيم بن المهدي يعني
لنفسه ، بشد العن لافى ، ولم يفكر في يوم من يامه ان يتكسب بالعناء ، ذلك لان
العناء بالنسبة له ، متعة مضمومة ، احب العناء منذ الصغر هو واحنه (عليه) ، كان
كل شيء حواء يهيب به الى يدوق الحباء والتمتع بها ، على اكمل وجه ، فابوه المهدي
الحليفة المتعصب المتزمت ، لم يجد عذرة في استدعاء ابراهيم اوصلي اليه ، ليفني
بين يديه ، واخوه الرشيد ، لم يدخر وسيلة من الوسائل لجعل من بلاطه ندوة
موسيقية ، تضم كبار مطربي العصر ، فيشبه مثل هذه الديثة ، حذيرة بان توفق المواهب
الفنية بالانسان ، وان تزود هذه المواهب بما اذا كانت موفورة ، بالاحلام المجددة
فتنطلق هذه الاحلام متراصة متموجة ، دبا عنعب اكتمها عن زهر وشعر ، لقد
كان العن بالنسبة لابراهيم بن المهدي ، قبض حبوية متدفقة ، لافى وسطاً دلائماً ،
فتعاقبت الشخصية مع الوسط ، فكان هذا الامير العنان ولم يشأ ابراهيم بن المهدي
وهو في مستهل عهده لافى ، ان يبط اللثام عن مواهب العينة دفعة واحدة كان
اذا وضع لفاً من الألحان ان يسبه الى جارية من جوارى ، ذلك لانه كان يعتقد
بمكره الاجتماعي ، ويحرص على السو بنفسه عن هذه الصناعة .

كان ابراهيم بن المهدي يحترم نفسه ، فلا يقني إلا وراء ستر ، لا بل ان اعتداده
 بمركزه الاجتماعي ، حمل الرشيد ، على رجائه في تشريف جعفر الهمامي بالثناء
 أمامه . كما كان يعلم ان الفن الذي يأخذه في أوقات فراغه ، حقيقة علمية تتوخى
 من صاحبها ثقافة موسيقية عميقة ، أكثر مما تتوخى الهاماً ومواهب مجردة ، فلما
 فشل في طلب الخلافة وأخفق في الحكم ، تخلّى عن كبريائه العائلي ، وتهنك بالثناء
 وشرب البيذ ، وليس ذي المعين ، رفض عنه كل حرمة من حرمة البيت المالكة
 ليعيش حياته ، حياة فنان بوهيمي ، ولما تمكن من فنه وآس من نفسه القدرة على
 مساهمة الفنانين ، نزل الى الميدان لا ليعهد الى جواريه بمساء أطلانه ، بل ليقني هو
 بنفسه ، ما ينظم ويلحن ، وفتح باب معركة القديم والجديد ، وجرا المطربين على
 تحدى تراث الماضي وأنجاده .

وهكذا عرف التاريخ ابراهيم بن المهدي الفنان ، أكثر من معرفته له حليل
 بيت حكم وسلطان .

علية بنت المندى

لم يكن للمرأة في تاريخ الموسيقى العربية من العصر الجاهلي من التبريد كـ ،
اذ كانت المرأة نفسها خلال هذا العصر محرومة من الحقوق التي تجعل منها كائناً
يشعر بوجوده ، ويؤمن بشخصيته . وبالرغم من هذا الإهمال ، فقد لعبت المرأة
الجاهلية دوراً خطيراً في تاريخ الموسيقى العربية ، فقد كانت بصوتها تلتف اذ هي
وطيس القتال ، اشير الحمية في عوس المقاتلين ، وتردد الاغاني في الاعياد الخاصة
والعامة . ولم يحترف الغناء من النساء الا العدد اليسير ، ولكن هذا العدد لم يكن
حرراً ، وانما كان عبداً يشتري ويباع ، وكان هذا الصرب من الجوارى امهيات ،
يعني في المواسم التجارية ، في سوق عكاظ وعبر عكاظ ، ومهدى الى ابوك والسدة ،
كما حدث ذلك لملك حمية الابرش ولجندعي و رداثع الجاهلي المعروف ، ولم
يحدثنا التاريخ العربي ، الا عن قبتي كانت لعدو بن جعد ، اعداها السبل
العربي للشاعر امية بن ابي الصلت . فلما جاء الاسلام تطورت نظرة العربي الى
المرأة ، ولم تعد محبوبة لا حرمة لها ولا مكانة ، بل اصحت كائناً له حقوقه المرسومة
وواجباته المعروفة ، والمرأة التي كانت ممنوعة في طر الجاهلي ، والمرأة التي كانت
عبداً تقبل على عائق الجاهلي ، اصحت دعامة من أصب لدعائم ، وركيزة من
أقوى الركائز ، التي يقوم عليها المجتمع العربي ، ولدت المرأة في هذا الزمن مؤمنة
برسالتها معتزة بكرامتها ، فقد اصبحت التطور العربي ، على حياة المجتمع العربي ،
معنى سامياً ، وجعل للمرأة مثلاً عالياً يستل ، ايقظ في المرأة العربية شعورها
بوجودها واحساسها بشخصيتها ، فكان من جراء هذه البقطة ، تلك الخطوة الجريئة
التي خطاها العرب في مبداء التطور اللانهائي للحضارة الاسلامية في العربي ، الذي
كان يعيش في واقع محدود واحساسه المادي ، اصحل في هذا الزمن الى شخصية
احري ، شخصية جديدة ، قلب الاسلام ، تصوروا وتصويرها لكل ما يقع تحت

متناول بصرها ، فمن الحس انتهى بها المطاف الى المعنى ، ومن الواقع الى المثل الاعلى ، ومن اعادة الى الروح ، لاشيء من قيم الماضي ومعاضيه ، الا ما يتجاوب مع العربي في اطلاقه الجديد ، ولكن «عصرة الدين وشدة في ترك الفراغ وما ليس سماع في دين ولا معاش» كما يقول ابن حدرن ، حالت في نادى الامر ، دون انبثاق فجر الموسيقى ، ولتالي دون ظهور أثر المرأة في هذا الفن ، وبالرغم من هذا كله ، فقد طلت القيان في صدر الاسلام تغني في الاعباد والمواسم . وكانت هناك جوار حبشيات وغير حبشيات تعني في أيام الجمعة ، وصاحبات تضرب بالصنج ، أما في المبادئ العامة ، فقد كانت المرأة العربية ، سواء اكانت مسلمة أم مشركة تحض المقاتلين على القتال بهاريج ودعها ، فهي معركة أحد كانت هندام معاوية ، تشير حماسة القرشين بالصرب على الدف ، كانت تفعل ذلك وهي في ميدان المعركة غير هيبية ولا وجلية ، وبكى النساء عاء قتلى بدر ، فصائد عائشة تشيد باجناد الابطال ومآثر القتلى

ولكن هذه المرحلة من تاريخ العرب ، ما لبثت ان تلتها مرحلة جديدة ، جديدة في تصويرها ونصويرها للاشياء ، فقد امتدت رفعة الفتح العربي ، حتى شملت معظم ارجاء العالم القديم ، فتعرف العربي الى انماط مختلفة من الحضارة وتأثيرها تعرف به وتساوى اليه ، فلم يعد يقع بينك الحياة البدوية الحقة ، التي كان يجيهاها ، بل راح يتطلب حياة جديدة تتجاوب مع تطوره التاريخي ، فظهرت القيان امثال «سيرين» القبطية الاصل ودراباب وحولة والرباب ورائعة وسلمى ، هذي القيات التي وصفت بانها كانت تغني عاء القدماء ثم جذب العرب الاماء والموالي الى الجزيرة العربية ، وكان في عداد هؤلاء الموالي اناس صرخوا باسمهم وافر في الموسيقى فراحوا يسمون وهم يعملون في بناء الدور والمنازل ، فاستمع العرب الى غنائهم ، فطربوا لهم سمعوا وركبوا على الاذن الاجنبية القصائد العربية ، وجعلوا من هذا المزيج المركب فناً عائياً ، فاقنست الحوارى هذا العناء ، فكانت حملة وسلامة وجبانه . اما المرأة العربية الصافية عنصرياً ، فقد ترفعت عن مزاوله العناء ، كانت سيده ، وكان العناء صنعة الموالي ، ولا يلبق بالسيدة بممارسة صنعة العبيد ، ومع هذا فالقبة في العصر الاموي ، كانت تتمتع بحرية ومكانة عظيمتين . صحيح ، انها كانت تباع

وتشتري ، صمغ اما كانت محرومة من الحقوق التي تتمتع بها المرأة العربية ، ولكن الامر الحدير بالملاحظة ، هو اما كانت تتمتع بحكمة مرموقة ، حتى ان رجالات ذلك العصر ، لم يجدوا عصاة في غشيان دور القبان كان حسان بن ثابت شاعر النبي ، يطرق باب العدة عرة الميلاء ، ويستنمع الى غشاها ويبيكي ، كما كان عبدالله بن جعفر يزور حيلة المغنية ، ويحصر بحلسها العائنة ، وكانت الواحدة من القبان تشتري حريتها بصوتها ، وادام بقدرته ذلك كانت تنصرف بقدراتها بكل حرية ، فحيلة المغنية استقلت نفسها ، بعد ان اعقبها سادتها لقاء مال وفير ، كانت قد غادرت المدينة الى مكة ، ودعت وداع الملوك ، واداء وصلت اليها استقبلت استقبال الامراء ، وسار في ركن السادة والشعراء ، ولم تكن هذه العانة لتصن على الشعب بصوتها الجليل ، كانت تمنع ابواب بيتها للباس نفسيهم ، دون ما اجر ودون ما ثواب . وصفا كذب التاريخ والادب بها كانت سيدة محترمة مصونة ، آلت على نفسها الا تفي الا في بيتها ، كذلك كان الرحمن الذي يستدعيها الى منزله . وخليفة المكية رفض الزواج من محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ابن عم الحبيفة ، ذلك لانه لم يشأ ان يكون الرياح على رؤوس الاشهاد ، وقالت لرسوله (يا بكاح امر ، فلا رافة لافعلته ولا كنت عارا على القبان) ، هذا وخليفة المكية امة سوداء ترفض زواج السر ، لئلا تفسد سمعة القبان . وما يقال عن حليدة يقال عن سلامة فقد احبها القس ، وكام بها وهام من اجلها على وجهه ولكنها ظلت حريصة على سمها ، فلم تفسد هذا الحب بما يشبهه .

ولكن هذا الخلق القويم ، الذي نخلت به المرأة العانة في العصر الاموي ، ما لبث ان تلاشى في العصر العباسي ، فقد تبدلت القيم وتغيرت المفاهيم ، لم بعد الحقيقة حبها الطاهر البري ، ولا سمعتها الطيبة الحسنة ، لم تعد تلك المخلوقة التي تأتي طرق دور الامراء ، وتوفض روحا غير شرعي من السادة الاثرياء ، لقد تبدل العصر ، وتبدلت نظرة الناس الى الاشياء . تبارى التجار في شراء وبيع الجوارح المعنيات وانتشرت اسواق البغاة . وهناك ، في كل مدينة وفي كل بلدة ، وقامت دور ابن سيرين ، وغير ابن سيرين ، في اعداد الجوارح ، وراح ابراهيم الموصلي امام المعين في العصر العباسي ، يعدد المعنيات اعدادا حاصا ، يحار الجيلات من الجوارح ويعلمهن

أصول لبهجة والريّة والتفنن في عواية الرجال ، فارتفعت أسعار الجوارى ، حتى بلغ سعر الواحدة منهن الوف الدنانير . صارت القينة سلعة والمطربة متعة ، فقددت المرأة العساة ، الإحساس بالنيل بكرامتها ، والشعور الرفيع بشخصيتها . باتت معها الوحيد في هذه الحياة الديب ، ان تحتفظ برفقة صونها ، ومعدن جسدها ، ذلك لأنها كانت تعلم ان حبيتها موقوفة على هذين الشينين ، وان فقدتهما لأمعنى له الاضباعها وصباها الى الابد . ولم تكن المرأة العساة في العصر العباسي هي المستولة عن هذا المصير المبندل ، ان وضعها الاقتصادي ، هو الذي رسمها مركزها الاجتماعي ، كانت سلعة ، لا تتمتع بحق من الحقوق ، ولم يكن في مقدورها ، دسمة الفن للفن نفسه ، اذ لم تكن للفن في ذلك الزمن من قيمة في حد ذاته ، فكان من نتيجة هذا كله ، ان فقدت مكانتها في المجتمع الذي تعيش بين طراياه ، وحتى ينسى ما البقاء في عالم فوح فيه الاهواء انقست من الاعواء ودارست الاعراء ، وآثرت المادة على المعنى ونبتت الروح ، لتعيش بالجد والجدة وحده ، اما تلك الكرامة التي كانت طابع العصر الاموي ، فقد خسرتها المرأة العساة في العصر العباسي ، ان حياة نظير حياة المطربة (دفاق) تعطى صورة واضحة عن واقع المرأة القينة في العصر العباسي ، فقد كانت هذه المرأة لا تتورع عن اللعب بقلوب الرجال ، توهم كل رجل عرفته ، انها تحبه دون سائر الدس اجمعين ، وانها تهبه من ذات نفسها ما لم تهيب غيره مثله ، فكان الرجل يتفلسفون على مرصمتها وينساقطون سرعى اهوائها العابتة .

ولكن الفن الغنائي في العصر العباسي ، لم يقتصر على طبقة معينة من المطربات . لم يقتصر على الجوارى المغنيات بل تعداها الى قصور الخلفاء ، فصرق باب المهدي ليكشف الستار عن هذه لعبت دورا خطيرا في تاريخ العهد العربي ، امان هذا العصر ، وهذه القساة هي عليه بت المهدي . كانت ام علية (مكنونة) معينة من مغنيات المدينة ، وصفت بانها من احمل حوارى المدينة وجها واحسنهن صوتا ، ومن مكنونة تعلمت علية الغناء ، بحيث ان الفن الغنائي كان طبيعة اصيلة من طبائعها النفسية ، تحدر اليها بالوارثة ، وما واردها ، تحت تأثير عامل الوسط ، هذا الوسط الذي شرعت فيه انوار الموسيقى تشع وتناقى ، حاملة معها ما بهن اليه العصر

العباسي ، من تطور عميق شامل ، تعود الى غالية بنت المهدي ، اعظم تراث موسيقي عربي ، وبنت هذا التراث ، في وسط غدنة ، ماديا ومعنويا حصارا مشرقا وهية ، فالتقت هذه الحصارا بداء التراث ، فوق صعيد تعجز عن اعدب يسوع . كانت عليا بنت المهدي اميرة تنعم بحبة رصية فم تنلق الفن لتكسب به قوتها اليومي ، وانا اخذته عن امها ووجدت فيه العراء الروحي ، الذي يلا فراع الحياة ان اميرة لاحظ لها من رواج ، ولا من اولاد ، تعيش في قصر ملكي ، ضربت حوله سجع من حديد ، بلى ان حياة مثل هذه الحياة حلقة بان تدعك المال والضرر ، في نفس مرهقة حساسة ، وان تحمل الاسنان على التحري عن افق ، يسي فيه وجوده ويتلاشى في احوائه الراحرة الحاملة ، فاعمن العاني لذي عليا بنت المهدي لم يكن طبيعة اصيلة فقط ، وانا كان حاجة حيوية ايضا . وقد ساعد الوسط الذي عاشت في احياء عليا على تفنح فيها العاني ، كان كل شيء في هذا الوسط ، بدعوها لتعب الففن اروع التحف واحمل الآثار ، فاحوها ابراهيم يطرحها العناء ، والرشيدي يمشي بحولها الخاصة ويأخذ معه جعفر البرمكي لبسم صوت الاميرة العباسية من وراء ستار ، لابل ان كلف الرشيد بعليا كان من القوة فكان ، فهو صاحبه معه الى الري ، وعصب عليها لانها تأخرت في الحبح ، وغت للاميين والمأمون ، ودت اليها ابراهيم الموصلية ، واخذت عنه واحذ عنها ، وبعثت اليه بحراري يطرحون عليه عاءها ويأخذون منه ما يطرحه هليهن ، الى جانب هذا كله ، فقد كانت عليا بنت المهدي ، شاعرة تنظم الشعر ، وتضع عليه العن ، ولم يكن الشعر في عرفها رسالة فنية ، وانا كان شأه عندها شأن العناء سواء بسواء ، فهي لانظم الشعر كما تقول الا (عبثا) وهي لانراسل بالاشعار ، ولا من تختصه ، وبالرغم من هذه النظرة العابثة الى الفن ، فقد كانت تطيل النظر في الكتب ، الامر الذي اكسبها خبرة بالناس واحوال الناس .

ولكن الفن الذي كفت به عية ، ما كان في مقدوره ان يشعل حياة امرأة شابة ابد الدهر ومدى العمر ، لقد كن وجود عليا بداها ، وكان الفن ذاته بوقد

جذرة العروة لآمنة ، وبوقط الحس ويثير صوت العرس ، كانت عليا تعيش في قصر مسكي ، آمنة تتحدث مع وابد القصر ، ولكن هذا الوث الاساني ، كان يحمل في تصاعيفه ، حياة متدفقة ، وليس في الامكان وأد هذه الحبة الحاسة الحياة ، فاذا كان الفن فيض حيوية عليا بنت المهدي ، ون هذا القمص ، لم ينبع الا من قلب يتصور لطفة الى حيرة حافلة بالشباب ، وما يستدعيه هذا الشباب .

لقد كانت احلام الفن تشد رمرا حيا ، رمرا تتدفق فيه الحياة ، ولكن في لعلى مثل هذا الرمر الذي تودعه افراح الفن واحلامه ؟ اي ما هذا الانسان الذي تبته السعوى ، وهي المخلوقة التي جبل بسها وبين النور ؟

كان للخليفة هرون الرشيد خادم يدعى طل ، وكان هذا الخادم عبي جباب عظيم من الجمل ، ويظهر ان الاميرة الفاره ، وجدت في هذا الخادم الامل انشود ، انه خلة ، اذا لم تروضه ، فهي معتقة اوار عيب ، وبالأ هذا الخادم خواء حياتها ، هم تعد تفكر ، لا به ولا يحلم ، لا بصورته ، كان هم لطل من القوة ، بحيث انها لم تتورع عن المظرة بحياتها ، فقد غاب عنها مرة ، مشيت اليه على ميزاب ، غير آبهة بما يجيق بها من خطر ، ولا حافلة بما يجره هذا الامر عليها من ثأع غير مستحقة ، لقد كانت قوة حبها ، مدفوعة بذلك الشعور الحار ، شعور الحرمان لمكبوت ، هذا الشعور الذي تعمق دومة واحدة ، والمدفع كاسبل يجرف امامه كل ما يعترض سبيله ، ولما التقت بطل همست في اذنه :

قد كان ما كلفه وما باطل من وجيد بكم بكفي

حتى انيك رثا محلا أمشي على حنق الى حنق

وعنت عليا الابات ، وتناقلت الحوار في مظهره ولحنه عليا ، وثامت كل هذه الاشياء الى مسمع خليفة هرون الرشيد ، فعصب وحقق وآلى عينا الاتكم عليا طلا ، والا تسميه باسمه ، فبكث عليه فردوسها المفقود .

طل ولكني حرمت نصيبه ووصاله ان لم يعنني الله

واشفق الرشيد على احته فوهبها طل ، ولكن العاطفة المتقدة التي كانت تحرق حياة عليه ، ابان كان طل في حيرة عيرها ، ما لبثت ان خبت ، كانت تحبه يوم كانت لا تملكه ، كانت تحبه حبا كان صورة متسوجه ، تراود الاحلام ، اما وقد ملكته ، فقد برمت به واجتوقته ، فراحته تنشد الخلاص منه والنحرر من سلطانه .

وهكذا استعاضت عن حب طل بحب رشا .

* * * * *

كان الفن الفنائي مقتصرأ على الجوارى ، ومنذ اليوم الذي مارست فيه عليه بنت المهدي هذا الفن ، حررتة من القيود الاجتماعية الرجعية ، جعلت من الفن رسالة ، رسالة يؤدها الانسان مهما كانت صفة طبقته ، ومهما كانت سمة مجتمعه ، انه حقيقة ، حقيقة تنشد لذاتها ، وهي اذا احسنه وكتفت به ، فقد جعلت من قلبها وفود شعلته الخالدة .



اسحق الموصلي

قديون اولئك الرجال الذين نوهرت لديهم المواهب التي توفرت لاسحق الموصلي ، فقد كان شخصية موهورة متعددة الجوانب ، ضرب بسهم واحد في المعارف المتداولة في رده . كان اسحق الموصلي ، نظير اولئك «الاسكليوديين» الذين عرفوا في القرن الثامن عشر . أحاط بكل شيء ولم يكل شيء ، حتى قبل : لقد (قل في الزمان نظيره) وصفه لاصفها في نقوله (وموصفه من العلم ومكانه من الادب ومحلّه من الرواية وتقدمه في الشعر ، ومزله في سائر المهن أشهر من ان يدل عليها وصفه) وقد بلغ اعقاب المأمون «اسحاق الموصلي ، حداً بعيداً ، حتى قال : (لولا ما سبق على السة الناس وشهر به عدم من الغناء لوليه القضاء بحضرتي) ، وروى جعفر بن قدامة ، ان اسحاق الموصلي ، سأل المأمون (ان يكون دخوله اليه ، مع أهل العلم والادب والرواية ، لا مع المعسرين ، فإذا أراد الغناء غناه ، فأجابه الى ذلك ثم سأل بعد ذلك عدة ان يكون دخوله مع الفقهاء ، فأذن له في ذلك ، فكان يدخل ويده في يد القصة) وروي المرواني عن محمد بن عطية الشعر قال (كنت عند مجي بن آكثم في مجلس له ، يجتمع اليه فيه أهل العلم ، وحضر اسحاق ، فعلم يناظر أهل الكلام حتى انصف منهم ، ثم تكلم في الفقه فأحسن واحسن ، ثم تكلم في الشعر واللفظ ، ففاق من حضر) ، ولعل أغرب ظاهرة من ظواهر اسحاق ، هذا الرجل الذي توفرت لديه كل هذه المواهب ، انه كان يفت الغناء ويجسونه ، فقد كان يؤثر ان يصرب على ان يندب الى الغناء وينسب اليه ، هذا واسحاق الموصلي نال بالعد ، ما لم يبل مثله ، غيره من المقتنين والمطربين ، واستطاع ان يفوق الشعراء في ابتزاز اموال الخلفاء ، ولقد كان للغناء ، مهة مبتذلة حقيرة في نظر اسحق ، ولكن وسطه ، ما كان يريد له الا ان يكون مغنياً ، بالرغم من مواهبه وبالرغم من مؤهلاته ، فقد اشتهر بين الناس ، بالمغني ، هو وابوه ، وكما حاول ابوه ابراهيم الفرار من مراولة هذه المهنة ، كذلك كان حال الابن .

ولكن هذه المحاولة ، لم تكن اسحاق شيئاً ، ذلك لان وصمة العن الغدئي ، كانت تلاحقه ، وما كان في مقدور اسحاق ، ولا من كان على شاكلة اسحاق ، التحرر من هذه الوصمة ، فالخفاء والامراء والساده ، كانوا يعملون ببيع العن ، ولكنه ما كان في مقدورهم ، حمايته وحماية رجاله ، ونخطي التقاليد المتوارثة ، في رفع أربابه الى المركز الاجتماعي الذي يحسون به ويصبون اليه ، مهما كانت مواهبهم ومهما كانت صفاتهم . فقد عرض اسحاق على الأماون ، السماح له بالجلوس بين يديه ، مع رجال القضاة ، لم يجد الأماون مندوحة ، من شراء هذا الجلوس ، بمائة ألف درهم .

وهكذا تبددت أحلام اسحاق ، في الجلوس مع القضاة في حصرة الخليفة ، ورأبته تلك الامثال التي طالما سعى وراءها وحدها ، فاستوى على قدميه ، اماله الصانعة واحلامه الخائبة ، استوى على هذا العن الذي حمل حبيبة مثل الوثائق على القول (لو ان العمر والشباب يشتري ، لاشتريته لاسحاق ، بشرط ملكي) ، كما حمل الخليفة المتوكل على القول حينما مات اسحاق (ذهب صدر عظيم من جمال الملك وجماله ورينته) . ومهما كان نصيب اسحاق الموصلي من وسطه الاجتماعي ، ومهما حاول هذا الوسط ، جعود ميزات اسحاق الفكرية ، فقد كان اسحاق هاماً عبقرياً ، أوتي من روعة الصنعة ودقة الملاحظة ، ما يؤهله لان يكون فنان بلاط عصره . فقد تجلّت روعة صناعته ، الرعم من ببر صوته عن الوتر ، في تلك النغم الغنائية التي ما ردها ، الا وأحدث الناس عن انفسهم وشعنتهم عن دانهم ، فقد روي ان اسحاق غنى مرة في حصرة الخليفة ، فصق العبدان ورقصوا ، وهم لا يعلمون ما يصنعون . وتجلّت دقة ملاحظته الفنية ، في ادراكه ، موطن الضعف ، في فرقة موسيقية مؤلفة من عشرين مطرباً ومغنيين وترّاً .

ولم تقف مواهب اسحاق الموصلي الفنية ، عند الاطراب وصوغ الاحداث ونظم الاشعار ، بل تعدت هذا كله الى التأليف ، فقد وضع اسحاق الموصلي كتاباً عن عزة الميلاء ، ومعبد ، والرقص والرفق ، والسهم والايقاع ... وما الى ذلك من الآثار التي تجلّت فيها عبقرية اسحاق المتعددة الجوانب .

* * *

كان اسحق الموصلي من اولئك الفسيفيين الذين يحضنون التراث الماضي ، و يرون فيه المثل الاعلى الخلق بالانباغ ، كما كان من اولئك الفسيفيين الذين ينكرون كل تغيير يدخل على هذا التراث ، مهما كان لونه ومهما كان شكله ، فضاء ابراهيم ابن المهدي ، واضراب ابراهيم بن المهدي ، جاعلاً من غبه الحارس الامين للعباء الكلاسيكي العربي ، فان مريح والعريض ومعد ، هم الموضح الحلي ، للعناء العربي ، اما ما عد هؤلاء ومن عصر هؤلاء ، فليسوا عـير مقلدين ، ولم يكن اسحق الموصلي ، مجرد عصاة في التقليد ، ذلك لان الفناء الذي يعتد بالقديم وبأخذ بأسباب القديم ، ان يتبع بحري لنظم الاربي للعبية ، وكل تمرد على هذا النظام ، هو ضي عمياء ، لا تحقق الابداع ، والقديم ، هو لنظام ، هو القواعد التي تفرص على التعابير املاً بقاءً معين ، ولعمري ان الذي يتمرد على هذا لنظام ، هو الفناء الذي يعوز روحه الاستجد ، وينتقل الى لقيرة الملهم الممررة بالارادة المبتكرة ، التي تقيد الفن بالقواعد المقررة ، انه يحلق صمص هزيل ، وهذا كان في الحرية عفرية ، ففي النظام عفرية ابعده مدى ولم تكن فكرة اسحق الموصلي ، عريضة عن وسطه الاجتماعي ، وان كانت امتد هذا الوسط المحفوظ ، لحريض على كلاسيكيته ، حرصه على وجوده ، قال اسحق ومن سار على عرار اسحق من الفسيفيين ، خطوة لدى الحفماء والطبقة الحاكمة ، لم يصغر مثلاً غيره ، فقد كان اسحق الموصلي ، يسمى بكل ما اوتي من قوة ، ليظهر انصار طريقته الفدية ، بصلات الحفماء وجواثرهم ، كما كان شأنه مع عبوبه ، بحيث ان انصار هذه الطريقة ، أمثال محمد الرف وفهم الصاحبة ... كانوا ينمنعون بحرمة ، لا ينمنع مثلاً انصار ابراهيم بن المهدي ، هذا اصفا ان ذلك العامل السبابي ، ادر كنا ، نصيب الحركة الجديدة في العناء العربي ، التي دعا اليها ابراهيم بن المهدي ، من هبات الحفماء وعطافهم ، ولكن العصر ، كان عصر تجدد ، فقد يحفظ اللات على القلايد ، وقد يحرص على المعينات ، وقد نجد الكلاسيكية لعمم الانصار والاعوان ، غير ان التطور الالهامي للفكر الانساني ، لا تقف في وجهه الدود ، ولا تحول دون انطلاقه القبود ، لقد كان اسحق الموصلي محافظته على اقديم ، وانكاره لكن تبديل عليه وتغيير فيه ، بمحاول وقف دولاب التاريخ ، وشل حركة ولدت تحت تأثير تطور

طبيعي، لفكر الانسان ومشاعر الانسان، حاول (تصحيح اجناس الغناء وطرائفه) املا منه بانقاد الغناء القديم، من موجة الجديد فعل اسحق الموصلي هذا كله، ليجد وسيلة تمكن طريقته من مجاراة التطور التاريخي للعصر العباسي، ولكن هذه الوسيلة، منها صمرت ومنها امتدت، فلبس في مقدورها الاستمرار دائماً وأبداً، فيما من شيء في هذا الوجود، الا وهو نتيجة طبيعية لعصره، نتيجة طبيعية، لايوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية معينة، وكل تبدل بطراً على هذه الاوضاع، يعقبه تبدل، في اساليب التعبير، لا بل في اساليب الحياة نفسها، فالقواعد المقررة التي حاول اسحق الموصلي، ان يلزم بها الغناء العربي في العصر العباسي، كانت تعمل في ذاتها عناصر انحلالها، وبالرغم من العبقرية العنانية التي امتاز بها اسحق الموصلي، فقد كان آخر شروط من اشواط حلبة القديم، وآخر مرحلة من مراحل حركة لا سبيل الى امتدادها الابدي.

* * *

ولكن الاجداد التي سارت في مواكب اسحق الموصلي، لم تدعه في نجوة من الاخطار التي كانت تهدد العاديين في ذلك العصر، فبالرغم من الحفاوة التي كانت يلقاها اسحق الموصلي، لدى الخلفاء، وبالرغم من أحده ناسباب الطريقة الكلاسيكية في الغناء، هذه الطريقة التي استدعتها طبيعة الحكم، ورفضت بها تقاليد الخلافة، فقد كان اسحق في كل لحظة من لحظات حياته، عرصة للاذي وهدفاً للهلاك، لا سيما في المواطن التي يتعرض فيها الى نقد اولاد الخلفاء الذين أخذوا من الفن بسهم، نظير ابراهيم بن المهدي، فقد روى صاحب الاغانى ان ابراهيم بن المهدي، كان يأكل المصين اكلا، حتى يحمض اسحق الموصلي، فيداربه ابراهيم، ويطلب مكافأته ومعارضته، ولا يدع اسحق يكبته، وكان اسحق يكبته، وكان اسحاق آفته، كما ان لكل شيء آفة، وله عدة مشاهد، قال اسحق: كنت يوماً عند الرشيد. وعنده بدماءؤه وحاصته، وفيهم ابراهيم بن المهدي، فقال لي الرشيد: يا اسحق تغن:

شربت مدامة وسقيت اخرى وراح المنتشون وما انتشيت

فغنيته فأقبل على ابراهيم بن المهدي، فقال: ما اصب يا اسحق ولا احسنت،

فقلت له . ليس هذا بما تحسه وتعرفه ، وان شئت فعنه ، وان لم اجدك تحطى فيه منذ ابتدائك الى انتهائك ، بدمي حلال . ثم اقبلت على الرشيد فقلت : يا امير المؤمنين : هذه صاعتي ، وصاعة ابي ، وهي التي قربتنا منك ، واستقدمنا اليك ، واططنا بساطك ، فاذا نارعاها احد بلا عم ، لم نجد بداً من الايضاح والذب فقال : لا عرو ، ولا لوم عليك ، ووفد الرشيد الحاجة ، فأقبل على ابراهيم وقال . وبلك يا اسحق ؛ تجترى علي وتقول ما قلت يا ابن . . . فداخلي ما لم املك نفسي معه ، فقلت له انت شتي ولا تقدر على اجابتك ، وانت ابن الخليفة وخور الخليفة ، ولولا ذلك لقد كنت اقول لك : يا ابن . . . كما كنت لي . قال اسحق : وعلمت ان ابراهيم يشكوني الى الرشيد ، وان الرشيد سبأل من حضر مما جرى بينهم ، ثم قلت له : انت تظن ان الخلافة تصير اليك ، فلا تزال تهددني بذلك ، وتعادبي كعادتي سائر اولياء اخيك ، حسداً له ولولده على الامر ، وانت تضعف عنه وعهم ، وتستخف بأولياهم تشيعا ، وارجو الا يخرجها الله تعالى عن يد الرشيد وولده ، وان يقتلك دوما ، وان صارت اليك والعيادة ، فحرام عبي العيش يومئذ ، والموت اطيب من الحياة معك ، فاصنع حينئذ ما بدا لك .

فما خرج الرشيد ، وثب ابراهيم فجلس بين يديه ، وقال يا امير المؤمنين : شمني ودمسكرا مي ، واستمع لي ، فعصب الرشيد وقال : ما تقول وبلك ، قلت : لا اعلم ، سل من حضر ، فأقبل على مسرور وحسين الخدم فسأهما عن القصة ، فحكما يخبرانه ووجهه يريد الى ان انتبه الى ذكر الخلافة ، فسري عنه ورجع لونه ، وقال لابراهيم : ما له ذنب ، شتمته فعرفك ان لا يقدر على جوابك ، ارجع الى موضعك ، وأمسك عن هذا ، فما انقضى المجلس وانصرف الناس امر الا ابرح ، وخرج كل من حضر ، حتى لم يبق غيري ، فدعني وهمتني نفسي ؛ فأقبل علي ، وقال لي : وبحك يا اسحق ، اتراني لا اعرف وقد نعتك ؟ قد والله زانيت دعوات ، وبحك لا تعد ، وبحك حدثني عنك لو ضربك اخي ابراهيم ، اكنتم أقتص لك منه ؟ فأضربه وهو أخي يا جاهل ، اترأه لو امر علماء ان يقتلوك فقتلوك ، اكنتم اقبله بك ، فقلت : قد والله فتدي يا امير المؤمنين ، بهذا الكلام ، ولئن بلغه

ليقتلني ، وما أشك في أنه قد بلغه الآن ، فصاح بمسرور الخادم وقال : عـ لي
 بأبراهيم الساعة ، وقال لي : قم فاصرف ، ففتت جماعة من الخدم ، وكلهم كان
 لي محبا ، وائي مائلا ، أخبروني بما يجري ، فأخبروني من غد : أنه لما دخل عليه
 وبخه وجهله وقال له : لم تستحب تحديي ؟ وضعتني ، ونديبي ، وابن حادمي ،
 وصنيعة أبي في محلي ، وتقدم علي وتضع في محلي وحصري ، تقدم علي هذا وامثاله ،
 وانت مالك رالعاء ، وما يدريك ما هو ؟ ومن أجاد له وطارحك إياه ، حتى
 تظن أنك تبيع منه مبيع اسحق ، الذي عدي به ، وهو صناعته ، ثم تظن أنك
 تحفظه فيما لا تدريه ، ويدعوك أي أقامة الحجة عليك ، فلا تثبت لذلك ، وتغنصم
 بشتيه ، اليس هذا ما يدل على السقوط ، وصمم العقل ، وسوء الأدب ، ومن
 دحورك فيما لا يشبهك ، ثم اظهارك أنه ولم تحكمه ، اليس تعلم ويحك ، أن
 هذا سوء رأي وأدب ، وقلة معرفة ومبالاة خاطأ ، والكذب والرد القبيح ، ثم
 قال له والله العظيم ، وحق رسول الكريم والافاعي من أبي - لئن أصابه
 سوء ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو سقط من دابته ، أو سقط عليه سقم ،
 أو مات فجأة ، لاقتلك به راقه راقه راقه وانت اعلم فلا تعرض له ، قم
 الآن فاصرح ، فصرخ وقد كاد يموت ، ولم كان بعد ذلك ، دخلت عليه وأبراهيم
 عنده ، فأعرضت عنه ، فجعش الرشيد بيطر أي مرة ، وإلى إبراهيم أخرى ،
 ويضحك ثم قال له : اني لاعلم بحبك لاسحق ، ومبيك إليه ، والاحد عنه ، وإن
 هذا لا تقدر عليه كما تريد ، إلى أن يرضى ، والرصا لا يكون مكرره ، ولكن
 أحسن إليه وأكرمه ، وبره وصله ، فاد فقلت ذلك ، ثم حالف ما هو ، عاقبته
 بيد مسطرة ، ولسان مطلق ، ثم قال لي : قم إلى مولاك وابن مولاك ، فقبل
 رأسه ، فمتمت إليه ، وأصلح بيننا .

دناير

غابت الاسطورة على حياة دناير، كما غلبت على حياة كل فنانة، رافقت حدثنا من أحداث التاريخ الحسام، حيث يذوق بحمها في حب، ويجبو في حين آخر، وقشي الاتحاد في مواكب تارة والمآسي تارة اخرى، فالجدة التي عاشتها دناير، والهبة التي آلت اليها دناير، كانت كاهبه لان قدح حوها، اسطورة من اروع لاساطير، فقد قدر هذه لعدة ان تعيش في قصر بحبي لبرمكي، وان تحن من قلبه مكانا لم تظهر مثله حارية من الجوارى، كما قدر هذه القبة ان تحطى بعظم الرشيد، وان يخف الى قصرها الخفية، اينسلي محاسنها ويستمع الى صوته، وان يتعرض لتثريب لاهوذة به يسهال عليه من اهل بيته، كما طرق منزل هذه القبة، وقد كانت لكاتب بحبي البرمكي بدناير من ناحية، وميل الخليفة اليها من ناحية اخرى، والهبة التي آلت اليها هذه القبة، المقيمة على الود الحريضة على العهد، بلى ان كل هذه الاشياء، كان لها اثرها البعيد في حدود اسم دناير، وامتداده من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر.

أفقد كانت دناير الرمز الحبي للوفاء، في زمن ما كان يتطلب من امرأة على شاكلتها، وفاء ابدى، يمتد مع العمر وقيم اند الدهر، في زمن ما كانت القينة فيه، غير متاع مشترك، تنتقل من رجل الى رجل، ومن بيت الى بيت، لاهم لها ولا غاية، الا ان تملأ العين والادن، ولكن دناير، ما كانت بامرأة التي تقبل بان تعيش على هامش الحاة، كانت امرأة تشمر بوجودها، وهذا الشعور العميق، هو الذي سطر حياتها، وكتب تاريخها بعدها، كما يكتبه كل ابن تنح قصائله من قلبه، لا من وسط عي عليه مشيته، فيعيش حياة مصطنعة، حياة خرة بالمصدق الاجتماعي. وبت دناير في المدينة، هذه الرفعة من الارض التي ظلت متمسكة بفضائل فنان العصر الماضي، هذه الفضائل التي رفعت من شأن الفنان، وجعلت الخلقاء والامراء والسادة، يدلون الى قصورها، كما يدلون الى مكان له حرمة وله

فداسنه ، فقد هرخت القبة في العصر الماضي وجودها على المجتمع الذي تعيش بين
 ظهرايه ، كانت تعتد بشخصيتها وتعتز بكرامتها ، وهي ادراولت من العناء ، انما
 تراول مهنة شريفة محترمة ، مهنة ما اثرها في الحياة الدنيا ، فلما هبطت دنائير
 بغداد ، كانت مرودة بكل هذه الفصائل العريقة الاصلية ، فلم تبدل نفسها ولم تقهن
 كرامتها ، ولم تنس بحبي الرومكي ولا البرامكة ، بعد النكبة التي حاقت بهم ونزلت
 بساحتهم ، ذلك لان دنائير كانت تعتقد بانها مدينة لبحبي الرومكي بكل شيء ، فهو
 الذي شاد باسمها ورفع ذكرها ، وهو الذي مكسها من اصول الفن وفوائده ، فسقت
 طريقها في حاصرة مدك ، محمل بالقبان وترسو بالجواني ، فتألق بحجب ، في تلك تدور
 فيه ، اروح كواكب الفن .

* * *

هبطت دنائير بغداد ، وهي لانعرف من الفن العثماني ، الا ذاك اللون القديم ،
 اللون الذي لم يعد بالامكان ، ان يتجاوب مع ما ناهت اليه الحضارة في العصر العثماني ؛
 اللون الذي كان يسخر منه العساكر ويعشون به ، ويتطاولون على اولئك الذين
 يعتدون به ويأخذون بأسبابه ؛ فقد كان السراع بين القديم والجديد ؛ غاية في الشدة
 والقوة والعنف ؛ فالدين يؤيدون القديم ؛ كانوا يحرسون كل الحرص ؛ على ان
 يظل التراث العربي ؛ محتفظاً بطابعه الاصيل ؛ لاسباب سياسية وغير سياسية ؛ كان
 هؤلاء الاصاير يرون ان بقاء السلطان العربي ؛ مرهون باطراد بقاء تراثه ؛ وامتداد
 هذا التراث من الماضي الى الحاضر ؛ ومن الحاضر الى المستقبل ؛ والفن صورة معبرة
 عن هذا التراث والرمز التقديدي له ؛ فاذا تبدل وانخذل نفسه عادم ؛ غير النماذج
 التي وصعها الاقدمون ؛ آذن هذا التبدل ، بتحول عميق شامل ؛ يتناول مختلف
 مظاهر الحياة ؛ وكان بمثابة ما قوس انقلاب ؛ بدق ويجلجل ؛ لقد كان هؤلاء الاصاير ؛
 يعتقدون بان التقاليد المتوارثة ؛ هي الركيزة التي تقوم عليها مقومات القومية لدى
 الشعوب ؛ فهم اذ يدافعون عن الفن العثماني القديم ؛ انما يدافعون عن مقومات
 قوميتهم التي اخدت تنصر في قوميات مختلفة الاجناس متعددة العناصر ، والذين
 يؤيدون الجديد ، ويناهضون القديم ، كانوا يرون في القديم العربي ، صورة جامدة
 ميتة ، لا حياة فيها ولا مادة ، وكان معظم هؤلاء من غير العرب ، هم تكن تزعمهم

التجديدية قائمة على اساس فكرة التطور التاريخي للانسانية ، واما على اساس بتر كل صلة للمواطن العباسي ، بماضي العرب ، وما حفل به هذا الماضي من تراث ، كانوا يعودون هذه الحطة ، لانها سيلهم الوحيد ، الى السلطان الذي فقدوه ، والمجد الذي اصاعوه ، هم اذ يدعون الى الجديد ، اغا يدعون الى انفسهم والى تراثهم الذي حقق وجوده في الحضارة العباسية . كانوا يعتقدون بان الحضارة العباسية ، هي من صنع ايدهم ، وليس من صنع ايدي العرب . فما على التراث العربي الا ان يبقع في الميافي والقفار ، وما على الفنان الذي يحمل مشعل هذا التراث ، الا ان يخفي بصت.

ولم يقف النزاع بين القديم والجديد ، عند ذاك النزاع العسكري ، الذي يقوم عادة بين طريقة وطريقة ، بل تعداه الى الفنانين انفسهم ، فقد ظهرت مدارس غنائية ، نساك في طريقتها العمانية ، محالك متباينة ، فمن مدرسة يتزعمها ابراهيم الموصللي ، الى مدرسة يتزعمها ابراهيم بن المهدي ، ومن مفن ينصر لهذا ، الى مفن ينصر لذاك .

في هذا الوسط الذي تصاربت فيه النزعات الفنية ، ومن ورائها ، ذاك النزاع السياسي القومي ، الذي كان يدلف بسكون ، دون ان يخلف وراءه اي اثر اطل ، ويطل على الساس وعلى وجهه فناع ، يخفي حقيقته الحية ، اقامت للفنانة دنانير .

نشأت دنانير ، في معقل الفناء العربي القديم ، واخذت من هذا اللون من الفناء ما تأخذه كل فنانة عاشت في بيئة محافظة على التراث العناني ، الذي تناقلته الحقب وقداولته الاجيال ، كانت المدينة ، مدينة جميلة وسلامة وحباية ، مدينة الاناسي وضمن الدعامة الاولى في صرح الفناء العربي ، وكانت مولاه حريصا كل الحرص ، على ان تنشأ جاريته ، شاة كلاسيكية صافية ، فادبها بادب الارائل من المغنيات ، رواية الشعر واخبار العرب ، والنصب والحداء والمرائي ، وما الى ذلك من الاطمان والعارف ، التي تحدت الى عصره ، ضمن نطاق طبيعة الوسط الذي يعيش فيه ، ولكن دنانير كانت تتمتع بميزات ارحب افقامن الوسط ، الذي عاشت تحت سمائه ، ودرجت فوق ارضه ، فقد كان من الصعب العبور ، على مواهب فنية نظير مواهب دنانير ، ان تتمتع في جو لم يتوفر لديه الانوار الالارمة والطلال الكامية ، لتزهر وتثع ، وتنبض على دنيا الفن ، بما سبته به الطبيعة من عبقرية ، وما كان في مقدورها ان تتحرر من الارض الموثوقة بها

قبل ان تنحدر من مولاه ، انها امة ليس لها من امر نفسها شيء ، فلما اشتراها
 بجي بن خالد البرمكي ، شعرت بانها تحورت ، وبانها وجدت نفسها ، فالافق الصيق
 الذي خلقت فيه ودرت على جوانبه ، قد ولى ، وطواه الزمن في غياهب الماضي ،
 انها الآن في بغداد ، عاصمة الدنيا ، مجلس غنائية هنا وهناك ، في قصور الخلفاء ،
 ودور الاسراء ، في البساتين المورقة ، وعلى الحرافات المتسابة فوق نهر دجلة ، فإين
 هذا كله من واحات المدينة ، ودررها وقصورها ؟ لقد كان كل شيء في هذه المدينة
 العظيمة ، يضيء وبقيض ، يوحى باسمي الشاعر وبوقط المواطف ويلهب الحواظر ،
 انها الآن في الوسط الذي طالما حملت به ، انها جميلة وقناة ، وهذا الجمال الذي
 انطوى على نفسه في المدينة ، سيبثق ها ، حيث يجد من يقدره ويعبده ، لابن
 عامة الناس ، بل بين السادة ، الاثرياء والامراء ، حتى الخلفاء ، انها ستجد صورتها
 في كل حين وفي كل قلب . لقد كان شأن دنابير ، شأن كل غابة في هذه الحياة
 الدنيا ، تحمل بالحياة الناعمة الغضة ، التي تتفق مع ماحبنتها به الطبيعة ، من فتنة في
 الصورة وفتنة في الصوت ، ولكن دنابير اذا وجدت لصورتها ، العيون التي ترتوئها
 والقلوب التي تفحقها ، كان عليها ان تجدد لصوتها داك الصدى الرمان ، كانت دنابير
 تمثل في غنائها الطريقة القديمة ، موصفت بابها (اروي الناس لغناء القديم) والقديم
 في بغداد ، مناهض يتجنون عليه ، وهي الآن في قصر امير من الامراء الذين
 يجدون في التمسك بالقديم ، مايتسمى مع احلام بيثت للسياسية ، انه فارسي ، يدين
 بالطاعة للبيت العربي المالك ، ولكنه حريص كل الحرص ، على التحرر من هذه
 الطاعة ، فهو اذا كان يظهر الولاء ، غير انه كان يعمل ، منذ قيام الدولة العباسية ،
 لاجل الخلاص من هذه الدولة . فاذا فست نشأة دنابير الاولى ، بأن تأخذ باسباب
 الغناء القديم ، فلا مكان لهذا القديم في قصره بعد اليوم . وراح بجي البرمكي ،
 بعد دنابير اعدادا جديدا ، بعد مواهبها لتفتح في الافق الفني الذي يريده والحو
 الذي ينشده ، ولم تكن غاية بجي البرمكي من هذا الاعداد ، فنية خالصة لوجه الفن
 بقدر ما كانت سياسية ، كان بجي البرمكي ، يهدف من وراء هذا الاعداد الجديد
 القضاء على التراث العربي القديم ، بدعوى ان المواهب المبدعة لا تجد مداها في القديم
 كما تجده في الحديدي ، وان القديم لم يعد يصلح لتابع مجراه في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا كلف يحيى البرمكي، المعنية «بذل» من ناحية، كما كلف ابراهيم الموصلي من ناحية اخرى، باعداد «دنانير».

* * *

وجدت «دنانير» في قصر يحيى بن خالد البرمكي، ما لم تجد مثله وهي في المدينة فقد أنتقلت من حياة صيقه محدودة، الى حياة راحة جديدة، فبعد ان كانت فتاة بجهولة مغمورة، أصبحت معروفة مشهورة، نغني وتؤلف كتب الغناء، وبعد ان كان سيدها رجلا عاديا، أصبح سيدها وزيرا واميرا، انها الآن ملء عين رجل، ما كانت تحلم بطرق بابها، انه يحبها ويؤثرها على غيرها، فلماذا لا تخلص له، لماذا لا تمناني في هذا الاخلاص؟

لقد حقق لها يحيى البرمكي، كل ما تشده المرأة، انها ترفل بالمقدس والحرير، وتتعلى بالياقوت والمرجان، ويخف اليها كبار المطربين والمطربات، لتأخذ منهم ويأخذوا منها.

وان اسمها لينطلق في الارجاء، وقد حفت به هالة من اجماد، وها هو ذا الخليفة نفسه، ها هو ذا الرشيد يأتي الى قصرها ويستمع الى غنائها، فيزورها مرة وثانية، وثالثة... فيجد في مجلسها، ما لم يجد له مثيلا في مجالسه، بين قيان وجواريه وها هو ذا يهدى خاتما، قدر ثمنه بثلاثين الف دينار، فتشور حفيفة السيدة الاولى زوجة الخليفة، فتعوذ «ممانه»، شاكية عاتية، وتصل الشكوى الى مسامع الخليفة فيحزن وبغضب، ويكظم غيظا مريرا، فقد كان يحب «دنانير»، حبا مهما ذهب المؤرخون في تصوره وتصويره، فقد كان من القوة، بحيث انه كان من العسير على الخليفة تجاهله. وحاولت السيدة الاولى، صرف زوجها عن «دنانير»، فاهدته اجمل جواريها وافضل قيانها، ولكن ما املته ما لبث ان خاب، فقد ظل الرشيد يرنو بانظاره الى «دنانير».

وهكذا تألبت ضد «دنانير»، قوى عنيفة مبيدة، قوى تلفظ اللحم في قصر البيت المالك، وتقذف باللهب حارح هذا القصر، في دور القيان والجواري اللاتي خش الحسد قلوبهن، وفي مجالس المطربين الذين كانوا يناهضون طريقة ابراهيم الموصلي الغنائية، التي حدث «دنانير» حذوها، وسارت على غرارها، فكانت صداد الرنان

في المجالس والمخاض .

وما كانت هذه المواقف ، الا لتصاعف من تعلق دنانير بالبيت البومكي ، فقد كانت تعلم علم اليقين ، بأن اسمها مرهون باسم هذا البيت ، فلما حلت النكبة به ، تداعت وانهارت ، فزابت القصر الذي قصت فيه اجمل ايام حياتها ، رايلته لتعيش وحيدة فريدة ، لتعيش بماضيها الحافل بالذكريات الحلوة العريضة . وما كانت دنانير بالمرأة التي ينساها الناس ، بالمرأة التي يطويها الزمن ، كما تطوى صفحة مهمة خاملة ، فقد احيت نكبة البرامكة ، الامل في نفوس عدد كبير من اولئك الذين كانوا يحملون بدنانير ، فنفخوا اليها بطلبون يدها ، ولكنها رفضت الزواج من احد وآثرت البقاء في زاوية منسية ، على الحياة في القصور العاجية ، كان ماضيها من الغنى ، بحيث انه فاص على حاضرها ومستقبلها ، ومن خلال ايامها القائمة ، كان بطل عليها هذا الماضي بوجهه المشرق ، فترون البسه ، وتتوسد ذراعه ، وتنام ، وتنام والذكريات تمر امامها تباعا ، كما لو انما حقيقة حبة ولاجل هذا ، ولاجل هذا فقط رفضت دنانير الزواج من احد ، ولاجل هذا ، ولاجل هذا فقط ، رفضت دنانير الغناء بين يدي الرشيد ، بعد نكبة البرامكة ، وهي العليمة بمكانها من قلب الرشيد وبأن هذا الرفض سيطوي اسمها الى الابد .

الموشحات الاندلسية

لم يقطع العرب في الاندلس ، صلتهم بالشرق ، بالرغم من العداء المكين القائم بين قرطبة وبغداد ، وبالرغم من الحقب الطوال التي قصوها في المردوس المفقود ، فقد ظلت الصلات الفكرية قائمة بين الشرق والعرب كما ظل التجاوب الثقافي ، مطرداً ومستمراً ، لا تقف أمامه التحوم ولا تحول دونه المسافات الشاسعة ، ولا الآماد الواسعة ، فقد كان أهل الاندلس يقومون برحلات الى المغرب العربي ، ومصر ، والشام ، والعراق ، والحجاز وما الى ذلك من الاقطار العربية ، كانوا يفعلون ذلك ، لا بقصد التجارة وريادة البلاد المقدسة فحسب ، وانما بقصد التعرف الى الارومة الاولى ، الى تلك النخلة التي ابتنى منها فرع العرب الاول ، وهذا العبر الذي امتد ، شمل معظم أرجاء العالم القديم ، فقد خف من العرب الى الشرق ، علماء وشعراء ، نظير الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي ، الصوفي المعروف صاحب نظرية وحدة الوجود ، كما خف من الشرق الى العرب ابو علي الغالي صاحب كتاب الامالي ، فقد استقل هذا الكاتب العربي كما يستقبل الامراء ، اذ امر الماصر انه الحكم بالدهاب على رأس وفد من وجوه الرعية لاستقباله ، وما يقال عن ابي علي الغالي يقال عن غيره من الكتاب والشعراء الذين اموا الاندلس من الشرق ، الامر الذي أدى الى تعاقب الافكار وتجاوب المشاعر ، لافي ميدان الادب والفكر فحسب بل في ميدان الفناء أيضاً .

كان لا يطرأ من المشرق معن الاسأل من بقصد ، فيدل على عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، ممن وصله منهم ، استقبله بصنوف الاكرام ، وكساه وخلطه بنفسه ، ولم يدعه الى أحد من الناس ، فلا يزال معه في صبح وغبوق ، وهو مجدوله كل يوم كرامة ، حتى يأخذ جميع ما معه من صوت مطرب أو حكاية نادرة . ويقول صاحب النفع الطيب ان عبد الوهاب بن الحسين ، دخل عليه بعض

عدائه وقد أخذ في الطعام والشراب والغناء ، فقال له : بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ، فامر بإدخاله ، فاذا رجل اسمر ، فسلم عليه قال ابن بسلد الرجل ، فأجاب البصرة . فرحب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان ، وأنه بطعام فأكل وصفت أقذاح ، ودار الغناء في المجلس ، حتى انتهى الى احرم ، فلما سكتوا اندفع الضيف يغني ، فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الخدق في اشارته ، وقال يا غلام خذ بيده الى الحمام ، وعجل علي به ، فادخل الحمام ونظف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعه من ثيابه ، فالتفت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره ، فغنى له .

قومي امزجي النبرة باللحن واحتلي الرطل باليد
واغتشي غفلة الليالي فربما ايقظت لحين

فطرب عبد الوهاب وشرب واستزاد فغناء .

وانت الذي اثرت عبي بماذا وعلتها بالمجمران تهر الغضا

ولم يزل هذا الضيف عنده مقرباً مكرماً . وعلى نحو هذه الحال ، كان يفعل بكل طارئ . يطل من المشرق . وهكذا غت الحصار العربية في الاندلس ، فانجبت الفردوس المفقود ، فلاسفة نظير ابن رشد ، وشعراء مثل ابن زيدون ، وشاعرات كولادة بنت المستكفي ، وكتاب كابن عبد ربه ، ثم أضفت العبقريّة العربية على الشعر العربي لوباً جديداً من الوانه الحلوة الرقيقة البراقة ، وهذا اللون هو الموشح ، ففي القرن الثالث للهجرة تالت نجم الشاعر (مقدم بن عافر) هذا الشاعر الذي ابتكر أول موشح في تاريخ الادب العربي ، ثم جاء بعده ابن زهر وابن بقي ، وابن باجة ، وابن سهل ، والمربني وغيرهم من المشاهير . وخادم الموشح الغناء بان وضع نفسه بين يديه ، بحيث ان كلمة الموشح باتت مرادفة لكلمة الغناء .

كانت الموشح نتيجة من نتائج التطور الذي طرأ على الشعر العربي في بلاد الاندلس هذا التطور الذي كان وليد عاملين ، عامل الطبيعة وعامل الحضارة ، فقد أوحى الطبيعة الى الشاعر الاندلسي ، الاحساس بالجمال ، قصور الوديان والغدران والوهاد والانجاد ، والبر والبحر والارض والسماء ، وأضفى على كل ما صوره اسمى حلة وأجمل زينة ، ثم افقن فيما ابتكره ، فغلب التصور والخيال ، على الحقيقة وواقع

الحال ، ونحن اذا القينا نظرة على مصدر كلمة التوشيح نلاحظ انها مرادفة للبهجة والزينة ، فقد جاء في لسان العرب ان الوشاح ، هو حلي النساء وان الوشاح اديم هريض يرصع بالجواهر ، وقد أشار ابن حلدون في مقدمته الى الصلة القائمة بين التوشيح ، والمهجة والربنة ، حينما قال (اما أهل الاندلس فقد كثرت الشعر في قطورهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التمشيق فيه الغاية ، استحدثت المتأخرون منهم ، فنا منه سموه بالموشح) .

اما عامل الحضارة فقد كان نتيجة من نتائج التقدم العسكري الذي وصل اليه عرب الاندلس . فالعصر العربي في هذه البلاد لم يعد يجد في الاوزان العربية الستة عشر مجزأ ، ما يتعارب مع تطوره المتلاحق ، والقافية الواحدة المقررة ، قيدت الانطلاق ، وكبلت الابداع ، وعطلت المدارك ، لا سيما في حالات التلحين والغناء ، فكان لا بد والحالة هذه ، من تجديد في أساليب الشعر ، تجديد ينشئ مع أفكار العرب في الاندلس ، كما ينشئ مع مشاعرهم ، فكان من جراء هذا ، ان ابتكر الشاعر العربي الاندلسي ، ضرباً جديداً من ضروب الشعر ، فابدى الموشحات ، وهكذا جدد العرب في الاندلس الشعر مسمى ومعنى ، ثم العوايتة وبين الموسيقى فجمعوا من الموشح قطعة شعرية غنائية ، فمادوا بذلك بالشعر والغناء الى وحدته الاصلية ، هذه الوحدة التي طالما آثارها في نشأة العمون ، إبان كان الشعر والغناء والرقص ، تؤلف ، كلا موحداً ، وقد أشار ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز الى هذه الوحدة العميقة حيث قال ، (ليس للموشحات من عروض الا تلحين ، ولا ضرب الا الضرب ولا أوتار الا الملاوى . وأكثرها مبني على الادغن) من هنا يتضح لنا ان الوشاح الاندلسي لم يسلك طريقة الشاعر القديم ، في حالة تلحين قصائده ، وانما سلك طريقاً جديداً ، ينشئ مع الغاية المقصودة من نظم التوشيح . كان التلحين فيما مضى ، هو الذي يتلو القصيدة ، بحيث ان الالحان كانت ترافق القصائد ، اما في التوشيح فقد كان الحال ، على خلاف هذا تماماً ، كان التوشيح هو الذي يرافق اللحن ، يضع الملحن قطعه الغنائية ، ويبقي الوشاح وينظم توشيحاً

يشمى مع وزن التلحين ، ومن هنا ندرك مر تلك الكلمات المسهمة العامصة ، التي تضمنتها بعض الموشحات ، هذه الكلمات التي لم تكن العاية الحقيقية منها ، الا ايجاد وزن شعري مستقيم ، يتجاوب في وحدته العددية مع الايقاع الموسيقي .

وهكذا نشأ في الاندلس نوع جديد من الشعر العربي ، نوع لا يتقيد بالاوران الشعرية المعروفة ولا بالقافية الواحدة ، وانما يصي حراً طليقاً ، لا رسوم له ولا تخوم ، وقد حاول ابن سناء الملك حصر اوران الموشحات فاففق ، (قال و كنت اودت ان اقيم للموشحات عروضا يكون دفترها لحسابها وميزاناً لأوثارها ، فمر ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر واعلانها عن الكف) .

ويتألف الموشح كما يقول ابن سناء المدك (من ستة افعال على الاكثر ، ويقال له التام وفي الاقل من خمسة افعال وخمسة أبيات ، ويقال له الافرع ، والتام ما ابتدئ به بالافعال والافرع ما ابتدئ به بالابيات) .

وتعددت قوافي الموشح حتى بلغت العشرات ، فقد وجد الوشاح الاندلسي ، ان القافية الواحدة لا تترك رواها غير جرس وتيب ، جرس تعافه الادب ، لا انطلاقه على نحو واحد ، مما كان منه الا ان حرر نفسه من هذه القيود الكلاسيكية ، هذه القيود التي طالما خنفت الافكار ووأدت المشاعر ، وخلفت التكلف بادي المعالم ، في فصائد لا تحصى ولا تعد ، لقد شهد الوشاح من وراء الموشح ، الانطلاق من القيود ، والتحرر من الاوران المتداولة والقافية الموحدة ، فكان يصع كما يقول صاحب الدخيرة (اكثر الموشحات على غير اعراب شعراء ، وعلى اشعار ، كما ان اكثرها كان على الاعراب الممثلة غير المستعملة ، وأخذ اللفظ العامي والمجمل ، ومما هو المركر ووضع عليه موشحه ، دون تضمين به ولا اغصان) .

الى جانب تحرر الوشاح من الاوران القديمة والقافية القديمة ، فقد راح يتحرر عن السهولة من نظم موشحاته ، هذه السهولة التي لاف قبولاً من الناس (الخاصة والكافة) كما يقول ابن خلدون لا بل ان رجلاً ، نظير ابن حرمون اعتبر السهولة من شروط الموشح الاصلية فقال (ما الموشح بلموشح حتى يكون عادياً عن التكلف) . اما أثر الموشحات في الاندلسيين فقد كان عظيماً جداً ، نظم ابو بكر ابن باجة

، وشعاع مدح فيه أمير مرفسطة وانفذ على قبائه

حرر الدين إنما جبر وصن الشكر منك ولشكر

قطرب الأمير ولما وصل إلى

عقد لله آية النصر لأمير العلاء أبي بكر

حلف الأمير الإيوان المعظمة لائش ابن رجة إلى مؤزله الأعلى الذهب ،
وحلف ابن رجة سوء العاقبة وحلف أن يعمل في معه ذهباً

* * *

وهكذا وجد عرب الأندلس في الموشحات ، الرمز الخبي لفهم العربي ، فقه
أودعوا هذا الفن ، تلك المراني خالدة من جمال طبيعته لاندس ، بحيث أتت
الموشحات ، كانت في الحقيقة صورة معبرة عن ثلاث المراني ، صورة حقه ، برؤى
والعلال ، والألوان والأشكال ، صورة مصاع فيه الطبيعة ، وهي نوح ونور ،
كما أودعوا هذا الفن ، فليس مثعهم المرفعة ، هذه مثع الرقيقة الحساسة ،
التي كانت تنطلق ، على همس الشكوى وثبت لبحوى ، فتنبؤ بهر وتعمق العطر
ومن هذه المشاعر وبلك المراني ، أثقت نوار الموشحات .

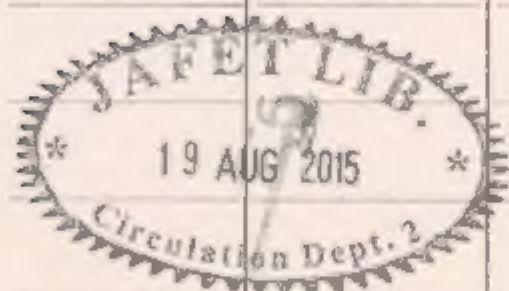
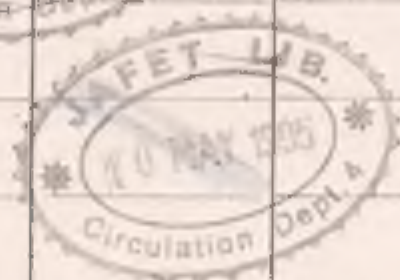


فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة
العصر الجاهلي	٣
الفناء في صدر الاسلام	١٤
العصر الاموي	١٩
حجة	٣١
معد	٣٦
سلامة وجهه	٤٢
العريض	٤٨
العصر العباسي	٥٦
مجلس العناء	٦٦
حياة الفناء	٧٣
حياة القيد	٧٩
ابراهيم الموصلي	٨٥
ابراهيم بن المهدي	٩١
عليه بنت المهدي	٩٨
اسحق الموصلي	١٠٥
ديانير	١١١
الموشحات الارداسية	١١٧

DATE DUE

Jafet Library



JAFET LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

780.902:I26mA:c.1

الاختيار، السيب

معالم الموسيقى العربية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01400100

780.902
I26mA

